

CA  
956.101  
J959A

حلي بات حسن لفظ

والجلب

١٦١١ - ١٦٠٥

بقلم

انحوري بوس قرألي

مدير المجلة البظيريركية

منشورات دار المكشوف

بيروت • ١٩٣٩

1841-1481

١٥٠  
١١١٠٤٠٢  
١٢٤٤

طبع من هذا الكتاب الف نسخة على ورق برشمان رقيق

كتاب ابن خلدون  
في تاريخه

للكاتب

جميع الحقوق محفوظة

منشور في بيروت

١٩٧١

158-1481

### اصطلاحات مختصرة

- مد ٥ السجل المديشي رقم ٢٢٧٥ من خزانة فلورنسا الاميرية .
- مد ٧ = = = = ٤٢٧٧ = = = =
- فط كتابنا فيخر الدين المعني الثاني ودولة تسكانا الجزء الاول بالاطالية .
- فع = = = = = = = = الجزء الثاني بالعربية .
- د تاريخ الطائفة المارونية للبطريك اسطفان الدويهي، المطبعة الكاثوليكية ١٨٩٨ .
- ج جزء .
- ص صفحة .
- و ورقة .
- ق قفا الورقة .
- رص راجع صفحة كذا من هذا الكتاب .

## كلمة للناس

في خريف السنة ١٩٣٣ ، بينما كنا نقاب بلهف الوثائق الخاصة بالامير فخر الدين المعني الثاني ، الراقدة منذ ثلاثة قرون في بطون السجلات المديشية بفلورنسا ، اذا بجانب شخصية الامير الخالدة تتجلى شخصية حليقة علي باشا جنبلاط ، العامل معه في حقل الوطنية بهمة الشباب وحماسه ، وحكمة الشيوخ وحنكهم ، وحزم قواد الجيوش وهيبتهم ، وحدة نظر كبار الساسة وبعدهم مرامهم . وكنا كلما تقدمنا في البحث والتقريب برزت من ظلمة الغيب وظل الماضي ملامح هذه الشخصية الممتازة ، وشقت لها طريقاً الى عالم النور والحقيقة والتاريخ . حتى بهرت اعيننا اعجاباً ، وانتعش قلبنا فخرأً بوطنية هذا المواطن الصادقة السامية .

ولما رأينا ان الوثائق الراجعة الى اعمال هذين الرجلين العظيمين يسند بعضها بعضاً ، كما كانا يتساندان في الحياة ، ضمناها سوياً في كتابنا « فخر الدين ودولة تسكانا » ورتبناها حسب وقائعها التاريخية ، فاربى الكتاب على ستمائة وخمسين صفحة . بيد ان الوهم داخلنا من تضخمه ، ومن خروجنا احياناً عن الحدود التي رسمناها له ، الواقفة عند درس علاقات الامير فخر الدين بدولة تسكانا . وخشينا ان يتسرب هذا الوهم الى اعضاء مجمع العلوم والفنون الملكي الايطالي ، الذين وعدونا بتحمل نفقات نشره ، وان يأخذوا علينا هذا التضخم وذلك الخروج .

فعمدنا الى الكتاب وسلخنا من صلبه المساند الخاصة بعلي باشا وحده ، ورتبناها على حدة ، على ان ننشرها في اول فرصة سانحة . فجاءت سفراً تقيساً بجوهره ، وان

صغيراً بحجمه ، و صفحة لا تقل جمالا ومجداً عمسا ككتبه الامير فخر الدين بما آتته  
العظيمة . انما كانت حياة علي باشا القصيرة شعلة لهيب لمعت كالبرق ، وملاً شعاعها  
الشرق ، وامتد حتى الغرب . ولم يطل بها الامر ان همد اجييجها ، وانكشمت اشعتها  
وانظفأت انوارها ، وبانت برهة بصيصاً تحت الرماد ثم تلاشت . بيد ان ذكرى لعانها  
لم تلتاش .

واعم هذه الوثائق مطوية في السجل الموسوم برقم ٤٢٧٥ بين سجلات آن مديني  
عواهل تسكانا ، المحفوظة في خزانة فلورنسا الاميرية (١) . وبعضها مثبت في السجل  
٤٢٧٧ من المجموعة نفسها . وكلها باللغة الايطالية ، ما خلا كتاب البابا بولس الخامس  
الى علي باشا ، الموضوع باللاتينية ، وكتاب علي باشا الى فردناندو الاول ، غراندوق  
تسكانا ، المكتوب بالتركية ، وكتاب ليونسيني اليه بالفرنسوية . فهرينا اهمها بما امكن  
من الدقة ، ولحصنا البقية .

واخذنا عن المحبي (٢) ترجمة حسين باشا جانبولاذ ، لتتعرف الى اسرته  
والى الاسباب التي آلت الى مصرعه . وما كان من ثورة علي باشا ابن اخيه على  
الامبراطورية العثمانية للاخذ بالثأر وسلخ سوروية والاناضول الجنوبي عنها .  
وتجد في ختام هذه الوثائق تقريرين عن النكبة التي اصابته مدينة حلب لما  
فكبت واليها . وكانت قد نازعت دمشق مركزها الاداري ، كما نزعته منها مركزها  
التجاري . فالى قراء العربية هذه التحفة التاريخية .

زغرتا في ٥ ايلول ١٩٣٨

الحوري بولس قرألى

(١) راجع وصفها في فط ٩-١١ وفع ٧-٨ .

(٢) محمد المحبي . خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر . المطبعة المصرية

الوهبية بالقاهرة ١٢٨٤ هـ (١٨٦٧ م) .

Faint, illegible text at the top of the page, possibly bleed-through from the reverse side.

تذکرہ قریب

Main body of faint, illegible text, likely bleed-through from the reverse side of the page.

Faint, illegible text at the bottom of the page, possibly bleed-through from the reverse side.

## الفصل الاول

### ثورة علي باشا

١ - اوروبا والدولة العثمانية . كان القرن السادس عشر يلفظ انفسه  
 الاخيرة ، والامبراطورية العثمانية قابضة بيديها الجبارتين على الشرق الادنى ، وقسم  
 كبير من اوربا الشرقية . واذا بالشعوب الواقعة تحت نيرها تتململ وتحاول التخلص  
 منه . وما هي هنية حتى عادت ثورة العجم الى الاشتعال ، وتجابوب وميضها في العرب  
 فتنبه لها وتحفز . وانتفضت الشعوب البلقانية واليونانية وانتفضت ، واندلعت السن  
 اللهب في صرح الامبراطورية العثمانية ، وصعد دخانها بين شقوقه ، فتصدع .  
 اولاً . العصيان على الدولة — اعلنت هنغاريا العصيان ولحققتها البانيا والبوسنة  
 وترانسيلفانيا والفلاخ من امم البلقان ، وجيورجيا ومقدونية من شعوب اليونان .  
 وكان لثورة العجم هزة عنيفة في الشرق العربي ، في اماراته وفي ولاياته . فشق عصا  
 الطاعة حسين باشا في الحبشة ، والعرب في اليمن ، واباطه باشا في بغداد ، وابن  
 القلندر في الاناضول ، وعلي باشا جنبلات في حلب ، والامير فخر الدين المعني في لبنان .  
 وتحولت افكار الامراء المسيحيين في اوروبا لتخليص الاراضي المقدسة ، واخوانهم  
 الشرقيين ، وهاجت اطباعهم في الفتح والارباح التجارية . فسموا للاتصال بالعصاة ،  
 وامدادهم بالاسلحة والذخائر والخبراء والاساطيل ، وتوحيد قواهم على الدولة العثمانية

اللانفلات من قبضتها الحديدية . وان ساعدتم الحظ لتخطيطها .  
 في السنة ١٥٧٠ انتزع الاتراك من يد الجمهورية البندقية جزيرة قبرس ، آخر  
 معقل للمسيحيين في الشرق الادنى ، وامعنوا فيها نهياً وذبحاً ، حتى بلغت القتلى  
 على قول بعضهم ، خمسة وعشرين الفا ، بينهم عدد يذكر من موارنة لبنان ، الذين  
 نزحوا اليها بعد نكبة كسروان في السنة ١٣٠٧ (١) ، فانكشفت سواحل اوربا المسيحية  
 امام العبارة العثمانية . احس البابا ييوس الخامس بالخطر ، فاستصرخ الامراء المسيحيين  
 واستنهض همهم وضم اساطيلهم ، فنازلت العبارة العثمانية في السنة ١٥٧١ على سواحل  
 لبيانتو اليونانية وكسرتها . وكان يُظن انها الضربة القاضية عليها .

بيد ان الحلف المسيحي لم يعتم ان تفكك . كانت فرنسا وقعت منذ السنة ١٥٣٦  
 مع الدولة العثمانية معاهدة تجارية ، رمت بها الى انتزاع تجارة البحر الابيض من  
 الجمهورية البندقية محتكرتها . ولما خسرت البندقية جزيرة قبرس خافت ان تخسر  
 معها مركزها التجاري في البحر الابيض ، فعمدت سراً مع البساب العالي في ٧ آذار  
 ١٥٧٣ اتفاقاً تخلت فيه نهائياً عن حقوقها في هذه الجزيرة ، وعن فتوحاتها الحديثة في  
 سواحل البانيا ، وتهددت له بغرامة حربية قدرها ثلثمائة الف سكوت . فانسدت  
 عن الحلف المسيحي ، وكانها خسرت معركة لبيانتو .

وكان ييوس الخامس قد انتقل الى حضن مولاه في السنة ١٥٧٢ وخلفه  
 غريغوريوس الثالث عشر ، الذي شاهد بمرارة هذا التراجع . بيد انه لم يقنط . بل  
 عاد فجمع على الدولة العثمانية كلمة بقية اعضاء « الحلف الكبير » : اسبانيا وتسكانا  
 وجنوفالو مالطة والفرنمهم « الحلف الصغير » (٢) . ومد يده الى الطوائف المسيحية في الشرق

(١) راجع كتابنا « حروب القديمين » ص ٨٥-٩٦ ومجلتنا البطريركية ٧ :

٣٢٥-٣٢٨ و ٤٠١-٤٠٨ .

(٢) La Piccola Lega



فالسنة ١٥٨٤ في رومية مدرسة لليونان. وفتح فيها مدارس للموارنة (١)، والاحباش  
والارمن. ووافق القصاد الى الطوائف المنشقة ليضمها الى الكرسي الرسولي.  
وجيز الوفود السياسية الى ملكي الحبشة والعجم (٢).  
ثانياً. البعثة الفارسية — وكان الكردينال فرناندو مديشي يده اليمنى في هذه  
المشاريع السياسية والدينية. فتولى شزون الموارنة والاقباط لدى الكرسي الرسولي،  
وقام بنفقات بعثتي الحبشة والعجم. واسس في رومية مطبعة شرقية، اشتهرت بالمطبعة  
المديشية، نشرت الانجيل العربي وكتاب القديس الماروني بحروف جميلة ورسوم  
بديعة، وغيرها من الكتب، لفائدة الشرقيين والمستشرقين (٣).  
ولما توفي اخوه فرنسيس غراندوق تسكانا بلا عقب، رأى ان يتبوا عرش اجداده  
مكانه، فيمنح له المجال للعمل في مشاريعه الشرقية. ولما لم يكن قد تقدم بهد الى  
الدرجات الكهنوتية خلع الارجوان الكردينالي وتزوج في السنة ١٥٨٧ ماريا كريستينا  
بنت دوق لورينا (٤)، التي اصبحت من اكبر العاطفين على الامير فخر الدين مسالجا  
في السنة ١٦١٣ الى قزما الثاني ولدها.  
اما اعضاء البعثة الحبشية فأتوا كلهم. ولم يعد من وفد العجم غير واحد. بيد ان  
الغراندوق فرناندو الاول ساعد المدعو انطون شرلي الانكليزي (٥) على مواصلة

(١) راجع مجموعة البراءات للعنيسي ص ٩٠.

(٢) راجع تاريخ البابوات لباستور:

Pastor Storia dei Papi IX, 239, 255

(٣) راجع باستور مجلد ٩ ص ٢٦٨ وشنورر في مكتبته العربية ص ٣٤٣:

Shnurrer : Bibliotheca arabica

Maria Cristina, Granduchessa di Toscana (٤)

Antonio Sherley (٥)

السعبي لدى شاه العجم ، ليعلمن الثورة على الدولة العثمانية ، مستنداً الى مخالفة الامراء  
المسيحيين . فتم له ذلك وعين الشاه بعثة من وجهاء ملاكته تقصد الى اوربا برئاسة  
شرلي المذكور لعقد المحادثات مع امرائها .

واوفد شرلي امامه المدعو انجيلو او ميكالانجيلو قريع الحلبي (١) ليمهد الطريق للبعثة  
الفارسية . وزوده كتاباً مؤرخاً في ٢٤ ايار ١٥٩٩ ، يوصي به الفرانديك فرديناندو  
الاول ويشكر له افضاله السابقة عليه ويبشره بنجاح مهمته لدى شاه العجم ، ويقرب  
مجيئه الى اوربا على رأس الوفد الفارسي ليخالف الامراء المسيحيين على الدولة  
العثمانية .

وصل ميخائيل قريع الى تسكانا في كانون الاول من السنة ١٥٩٩ عينها بصفة  
ترجمان البعثة ووكيل شرلي رئيسها. وقد وجدنا له في بيان المجموعة الستروتسيانية (٢) ،  
المحفوظة في خزانة الاوراق الاميرية بفلورنسا ، ترجمة ثلاث وثائق الى الايطالية  
لقب فيها بالفارس «الامثل ، ترجمان ملك العجم» (٣) .

وصلت البعثة الفارسية برئاسة شرلي الى اوربا ، ومؤلفة من زهاء ثلاثين وجيهاً .  
ويظهر انها قصدت اولاً الى امبراطور النمسا . لان الوثائق الثلاث المشار اليها قد  
ترجمها قريع في « براغا » . ثم عرجت على تسكانا ، فقابلت الفرانديك فرديناندو  
الاول . وتابعت مسيرها حتى روميه . وكانت حاملة كتباً من الشاه عباس الى امراء

(١) Michelangelo Corai اي الملاك ميخائيل . وقد وقع اسمه في ذيل  
معاهدة فرديناندو الاول مع علي باشا جنبلاط « فضلي بن يوحنا قوريع » . ولعله  
بدل اسمه فضله او باسيلي باسم انجيلو او ميكالانجيلو . وسندعوه في سياق هذا الكتاب  
باسم ميخائيل .

(٢) Stroziana وقد نشر بيانها تحت اسم Inventario Strozzi

(٣) Il Magnifico cavaliere Angelo Corai, interprete del Rè di Persia

الغرب ، منها كتاب قدمه الى اكليمينضوس الثامن « حسين علي بيك احد سفراء شاه العجم ، الذي دخل روميه في نيسان ١٦٠١ » . وبين هذه الكتب رسالة بالارمنية وجهها الشاه الى ملك اسبانيا (١) .

وبعد مرور هذا الوفد نرى الفرانودوق فردناندو ناشطاً للعمل في البحر الابيض فيحاول في السنة ١٦٠٢ ان يحل عملاءه في طرابلس اللبنانية ، ليفتح فيها سوقاً للمتوجات التسكانية . وفي السنة ١٦٠٥ اشار عليه احد البنادقة ، المدعو روفائيل كاتشياماري ، بمخالفة فخر الدين ، مؤكداً له ان صداقته مفتاح سورية والقدس وقبرس ، التي كان يطمح اليها (٢) . وفي السنة ١٦٠٦ ، بعد ان جاهر علي باشا جنبلاط بالعصيان على الدولة العثمانية واغتصب ولاية حلب ، ارسل الفرانودوق اسطوله لاحتلال ميناء آياس شمال سورية ، وموقعين آخرين في الاناضول . ولم يلبث ان اتصل بفخر الدين وحليفه علي باشا جنبلاط وملك العجم ، واوفد اليهم ميخائيل قريع المذكور اعلاه سفيراً ليضمهم اليه على الدولة العثمانية . وامر اسطوله باحتلال جزيرة قبرس (٣) .  
ثالثاً . ميخائيل قريع — روى الدويهي (٤) « في سنة ١٥٧٤ حدث في جبة بشري خصومة بين القريعية والبشرانية . فقتل القريعية منهم اثنين عند العيين التي تحت بقاع كفره . فقدمت الشكاية الى غزير بسبب القتل . اما الامير منصور العساف فمزل القريعية بايعاز ابي منصور بن حبيش عن ولاية الجبة . وسلمها الى المقدم مقلد بن الياس . وكان شريكه الشدياق يوسف ابورعد المسمى خاطر » .

واكبر الظن ان القريعية هاجروا الى حلب بعد هذا الحادث مع من هاجر اليها من اسر لبنان الشمالي . واعتنق بعضهم المذهب اليعقوبي . ففي العريضة التي وجهها

(١) Inventario Strozzi I 97

(٢) فع ١٦٠ - ١٦٢ .

(٣) فع ١٤٧ .

(٤) د ١٧٤ .

موارنة حلب سنة ١٦٣٤ الى مجمع انتشار الايمان برومية ، ليعين عليهم اسقفاً يضم  
شملهم ويسوسهم ، لأئحة بالاسر المارونية، التي انضمت الى اليعاقبة . بينها اسم «ميخائيل  
ابن قريع وابنه يوسف واهل بيوتهم» (١) . ولما كان اسم قريع قد ورد ايضاً بين الاسر  
السيرانية الكاثوليكية في حلب ، جاز لنا الظن ان قسماً من هذه الاسرة عاد الى  
الكنيسة . ففي السنة ١٥٨٦ ارسل المدعو منصور صفر قوريع ، امين جمر حلب ،  
الى البابا غريغوريوس الثالث عشر ، على يد المطران ليوناردو ايبسلا ، قاصده الى  
الطوائف المسيحية ، عريضة اعلن فيها انضمامه الى الكنيسة . فكافأه الحبر الاعظم  
بلقب «كونت روماني» (٢) . وناسخ المخطوط ١٧، ١٦ من مكتبة دير الشرفه للسيران  
الكاثوليك بكسروان (غوسطا) وقع اسمه «معقوق ابن خواجه ناصر ابن خواجه  
ابراهيمشا المعروف ببنت الاقريع . وكتب في كنيسة السيدة (بحلب) (٣) . ولعلنا  
غير راكبين الشطط اذا استنتجنا مما مر ان القريعية من موارنة لبنان الشمالي ،  
نزحوا الى حلب في اواخر القرن السادس عشر ، وتمذهب بعضهم باليعقوبية . وعاد  
منهم البعض الى الكنيسة . واطلق عليهم لقب ابراهيمشا ، المعروف بهم حتى الان .  
والله اعلم .

على أن ما وثقنا من معرفته عن ميخائيل قريع ، استناداً الى الوثائق المديشية ،  
انه خدم سبع سنين سنان باشا بن جفاله القائد العثماني (٤) ، بوظيفة كاتب ، ثم التحق  
بخدمة دوق مانتوفا في هنغاريا . وفي السنة ١٥٩٩ قصد الى ايطاليا وكيلا عن انطون

(١) Archivi di Prop. F. Lettere in diverse lingue ,cod. 180 f. 181

(٢) طرازي . السلاسل الذهبية ص ١٧٥ .

(٣) الخورفسقفوس اسحق ارمله : الطرفه في مخطوطات الشرفه، ص ٢٢٠ .

(٤) Cigala الايطالي الاصل . قاتل حسين باشا جنبلاط عم علي باشا كاسياتي

شربي سفير شاه العجم ، وترجماناً للبعثة الفارسية كما مر بك القول . وانه « مولود في حلب ، حيث ترك والده وزوجته . وبما انه خدم دوق مانتوفا استحال عليه العودة الى وطنه (١) » . وسنرى انه عاد الى حلب في السنة ١٦٠٧ سفيراً للفرانديك فرديناندو الاول ونال من علي باشا جنبلط ولاية الجمرک . وكان له في بغداد شقيق ذو بأس ومكائة .

اما الداعي الذي حمل علي باشا جنبلط على شق عصا الطاعة على الدولة العثمانية ، وحدا غراندوق تسكانا الى الاتصال به وبخليفه فخر الدين ، فاليك تفصيله :

٢ — مقتل حسين باشا . روى المحبي في ترجمة حسين باشا جانبولاد (٢)

ما يلي :

[٨٤] « حسين باشا جانبولاد الكردي امير الامراء بحلب ، كان في ابتداء امره من المتفرقة . ثم تولى اماره كلس منصب والده . وعزله عنه اخوه الامير حبيب . وشبت العداوة بينها . ثم استمررا يتعازلان فتولى ديو سليمان كلس فاحتاج الى جمع السكبانية . وكان ابتداء كثرتهم وظهور قوانينهم من عبد الحلیم اليازجي احد اتباع المسطور . ولما سجن صاحب الترجمة بحلب وبيعت جميع اسبابه وعقاراته بالخمس الاثمان لمال سلطاني كان عليه تولى كلس بعد ذلك وصمم على الامتناع عن تسليمها ان عزله احد . فكان اذا عزل من جانب السلطنة سعى في العود من غير تسليم المتولي [٨٥] الجديد . فعلم اكبر الدولة انهم اذا صمموا على عزله شق العصا فتركوه وارتضوا بالمال . فكثرت اجناده وامواله . وكان له مروءة وفتوة ومحبة للعلماء والصالحين الا انه كان ظالماً لاحتياجه الى علوفات السكبانية . وكان له فضيلة في علم الفلك والزبرجاد

(١) — مد ٥ و ٣ و ٤ .

(٢) — المحبي ٣ : ٨٤-٨٧ .

والتقويما والرميل • وصرف اكثر عمره في ذلك • ولما توجه محمد باشا الوزير ابن  
سنان باشا الاعظم سرداراً على حسين باشا امير لواء الحبشة • وكان خرج عن الطاعة  
وشق العصا • فتوجه صاحب الترجمة لحربه صحبة السردار • فقدم الى كلس  
خارجي من السكبانية يقال له رسم ومعه من البغاة اجناد كثيرة • • • • • فنهب كلس  
وصادر اعيان اهل القرى • ولما تولى نصوح باشا كفسالة حلب وكان عساكر دمشق  
تغلبوا على حلب ونواحيها وامره السلطان احمد باخراجهم وعجز عن ذلك فاستعان  
بصاحب الترجمة • فبعث ابن اخيه الامير علي بعسكر عظيم فاصبح نصوح باشا وقد  
اخذ القلعة ووضع متاريس تحت قلعة حلب واستعدت جماعته فكانوا نحو ستمائة •  
فاخذت العساكر الدمشقية باب بانقوسا واستعدوا وجمعوا عساكرهم نحو الالفين وهم  
لا يعلمون ان صاحب الترجمة بعث عساكر • فاحضر نصوح باشا اليه كنعمان سردار  
الدمشقيين واخبره ان السلطان رفعهم من الاستخدام وامر باخراجهم من حلب بعيالهم  
فامتنعوا • ثم تواردت الاخبار ان الامير علي بن جانبولاذ وصل الى قرية حيلان  
بعساكر لا تحصى فخرجوا في الظلام ولم يبق منهم احد • وفي اليوم الثاني دخل الامير  
علي بالعساكر المتكاثفة • فتبعهم نصوح باشا ومعه الامير علي الى قرية كفرطاب  
فوقع بينهم مباربة فانهزم الدمشقيون بعد ما قتل منهم جم غفير • فصادر نصوح باشا  
اقاربهم واتباعهم • وفعل حسين باشا مع نصوح باشا هذا الفعل فاخذ نصوح باشا  
يتكلم بين الناس انه يريد قتل حسين باشا • فسمع الخبر فاخذ في جمع العساكر وبعث  
جماعة الى السردار سنان باشا بن جفاله الذي ارسله السلطان لقتال الشاه • فبلغ ذلك  
نصوح باشا فاشتدت [٨٦] عداوته فعزم على المفاجأة بالقتال لكون كلس قريبة من  
حلب • فخرج في عساكره مجدداً حتى وصلها في يوم واحد • فقابله حسين باشا  
بعسكره والتقت الفئتان فانكسر نصوح باشا وقتل اكثر عسكره ودخل حلب منهزماً  
ثم في اليوم الثاني اخذ في جمع الاجناد وبذل الاموال لتكثير العدد والاعداد ظناً منه  
ان يصبح بعده اسفر • ثم جاء رسول من السردار سنان باشا جفاله يخبره بالاوامر

السردارية انه قد صار حسين باشا كافل المالك الحلبية وعزل نصوح باشا منهاه فلبس نصوح باشا جلد النمر وامتنع عن تسليم حلب لحسين باشا ٠٠٠ [٨٧] فما مضى اسبوع الا وقد اقبلت عساكر حسين باشا بمجموعها الى قرية حيلان ، فاستقبلهم نصوح باشا بالحرب فانكسر ثانياً ٠٠٠ [٨٨] واستولى حسين باشا على الديار الحلبية وشحنها من السكبان وصادر الاغنياء والفقراء لاجل علوفة السكبان ، ثم امر سنان باشا حسين باشا بالتوجه اليه لقتال الشاه فقدم رجلاً واخر اخرى وتناقل من السفر حتى حصلت الكسرة ببلاد العجم للعساكر العثمانية في وقعة مشهورة قتل فيها جماعة من الامراء وكانت في سادس عشر من جمادى الآخرة سنة اربع عشرة والف (١) . فلما رجع الوزير سنان باشا ابن جغاله (٢) ادر كنه حسين باشا في رجعتيه بمدينة وان فقتله لتأخره في السنة المذكورة . وكان يريد جعل ابن اخيه الامير علياً قائماً مقامه بحلب . فلما بلغه قتل عمه تملك حلب وخرج بها على السلطنة . وتولدت من ذلك فتن عظيمة ٠٠٠ .

### ٣ — عصيان علي باشا جنيرط . قال المحبي في ترجمته (٣) :

[١٣٥] « الامير علي بن احمد بن جانبولاذ بن قاسم الكردي القيصري . قد اكثر

(١) تشرين الثاني ١٦٠٥ .

(٢) هو ابن شيبون جغاله Scipione Cigala من مدينة مسينا في صقلية ، وقيل من جنوفا في ايطاليا الشمالية . وقع سنة ١٥٦١ مع ابيه ووالدته في اسر الاتراك وتربى في سراي السلطان . ثم جحد النصرانية واصبح آغا الانكشارية (مد ٧ و١٩٧) ثم تعين سرداراً على العجم فاندحر ، كما سيأتي شرحه . وفي احدي الروايات (جريدة المساجير و برومية عدد ٢٧ ك ٢ ١٩٣٥ Ermanno Ponti. Messaggero Romano) انه حاول تسنم عرش السلطنة ففشل .

(٣) ٣ : ١٣٥ - ١٤٠ .

اهل التاريخ والمجاميع ممن لحقوا واقعته من ذكره وذكر ما فعله بدمشق وما جرى  
لحكام الشام واهلها معه من الوقائع . وقد اخترت من ذلك ما اودعته في هذه الاوراق  
من مبدء امره الى منتهاه .

« واما ذكر اصله ومنزعه فجدده جانبولاذ هذا كان يعرف بابن عربوا وكان امير  
لواء بحلب . ولي حكومة المعرّة وكلس واعزاز . وكان له صيت [١٣٦] شائع  
وهمة عالية .

اولا: معرّكة حماه — «ومبدء الامير علي هذا انه كان في طليعة عمره وولي حكومة  
العزيزي . وقد تقدم في ترجمة عمه حسين باشا انه لما قتله الوزير ابن جفال لتراخييه  
في امر السفر الذي كان عين له ، خرج الامير علي عن طاعة السلطنة وجمع جمعا  
عظيما من السكبانامية حتى صار عنده منهم ما يزيد على عشرة آلاف ومنع المال  
المرتب عليه . وقتل ونهب في تلك الاطراف ودبر على قتل نائب حلب حسين باشا  
وكان ولاء السلطان نيابتها ووصل الى ادنه . وكان بادنه حاكم يعرف بجشميد فكتب  
اليه ابن جانبولاذ ان يصنع له ضيافة ويقتله ففعل ونما خبره الى الاقطار واستمر في  
حلب يظهر الشقاق الى ان ارسل يوسف بن سيفا صاحب عكار الى باب السلطنة رسالة  
يطلب فيها ان يكون اميراً على عساكر الشام . والتزم بازالة الامير علي عن حلب . فاجاء  
الامر على ما التزم . وارسل الى عسكر دمشق وامراء ضواحيها يطلبهم الى مجتمع  
العساكر وهو مدينة حماه . فاجتمعوا هناك من كل ناحية . وجاء ابن جانبولاذ الى  
حماة وتلاقيا وادما . فها هو الا ان كان اجتماعهم بمقدار نجر جزور . فانكسر ابن  
سيفسا واتباعه ورجع باربعة انفار . واستولى ابن جانبولاذ على نخيمه ونخيم عسكر  
الشام .

« ثم انه راسل الامير فيخر الدين بن معن امير الشوف وبلاد صيدا واظهر له انه  
قريبه على بعد النسبة . فحضر اليه واجتمعا عند نبع العاصي وتشاوروا على ان يقصدا



طرابلس الشام لاجل الانتقام من ابن سيفا • فسار ابن سيفا في البحر واخلي لهم  
طرابلس وعكار ، وارسل اولاده وعياله الى دمشق • واجلس مملوكه يوسف في  
قلعة طرابلس فتحصن بها • وبعث ابن جانبولاذا الامير درويش بن حبيب بن جانبولاذا  
الى طرابلس فضبظها واستولى على غالب اموال من وجد هناك ، واستخرج دقائن  
كثيرة لاهلها ، ولم يستطع ان يملك قلعتها •

ثانياً : موقعة عراد — « وسار الامير علي ومعه ابن معن الى ناحية البقاع العزيزي  
من نواحي دمشق ومرّاً على بعلبك وخراباً ما امكن تخريبه منها • واستقرا في البقاع  
واظهرا انها يريدان مقاومة عسكر الشام • ولم تزل العساكر الشامية ترد الى دمشق  
حتى استقر في وادي دمشق الغربي ما يزيد على عشرة آلاف • وتزاحف العسكران  
حتى استقر ابن جانبولاذا وابن معن في نواحي العراد • وزحف العسكر دمشق الى  
مقابلتها • وكان ابن سيفا وصل الى دمشق واظهر التمارض ولم يرحل مع العسكر  
الشامي واستمرت الرسل مترددة بين الفريقين ليصطلحا • فلم يقدر لهم الاصلاح •  
وتزاحف الجيشان • فتوهم ابن جانبولاذا من صدمة العسكر الشامي • فشرع في تفخيذ  
اكابر العسكر عن الاتفاق ووقع بينهم • ثم انه ارسل الى طائفة من اكابرهم فوردوا  
عليه في مخيمه والبسهم الخلع وتوافقوا معه على انهم ينكسرون عند المواجهة • (١)

« وكان في جانب ابن جانبولاذا ابن معن وابن الشهاب امير وادي التيم ويونس بن  
الخرفوش • فطابت نفسهم للافاة الشاميين وتقابل الفريقان في يوم السبت من اواسط  
جمادى الآخرة سنة خمس عشرة بعد الالف (٢) • ولم يقع قتال فاصل بين الفريقين  
ثم في صبيحة نهار الاحد وقف العسكر الشامي في المواجهة واقتتلا • فما مر مقدار جلسة  
خطيب الا وقد انقل العسكر الشامي • حتى قال ابن جانبولاذا « العسكر الشامي

(١) نشك في هذا القول لتحييز المحبي الظاهر ضد كل من عصى السلطان خليفة المسلمين •

(٢) ١٦ ت ١٦٠٦١ • اما الرحالة سانديس فيعين له اواسط ت ٢ (ص ٢١١) •

ما قاتلنا وإنما قابلنا للسلام» . . .

« فلما ولي عسكر دمشق زحف ابن جانبولاذ حتى نزل بقرية المزه . وكان نزوله في الحيام . واما ابن معن فانه كان ضعيف الجسد في هاتيك الايام . وكان نزوله في جامع المزه . واصبحت ابواب البلدة يوم الاثنين مقفلة . وقد خرج منها ابن سيفا وجماعته ليلا بعد ان اجتمع به قاضي القضاة بالشام المولى ابراهيم بن علي الازنيقي وحسن باشا الدفترى ولم يمكناه من الخروج حتى دفع اليهما مائة الف قرش ليفتدوا بها الشام من ابن جانبولاذ . ثم خرج ومعه الامير موسى ابن الحرفوش . ولما بلغ الامير ابن جانبولاذ خروجه غضب وقال أهل دمشق لو ارادوا السلامة ما مكثوا ابن سيفا من الخروج . وهم يعرفون انني ما وردت بلادهم الا لاجله . ونادى عند ذلك السكبانية ان يذهبوا مع الدروز جماعة ابن معن لنهب دمشق . فوردت السكبانية والدروز افواجا الى خارج دمشق وشرعوا في نهب المحلات الخارجية . فلما اشتد الكرب والحرب على المحلات وتلاحم القتال خاف العقلاء في دمشق فخرج جماعة الى ابن جانبولاذ وقالوا له ان ابن سيفا وضع لك عند قاضي الشام مائة الف قرش . وتداركوا له خمسة وعشرين الف قرش اخرى كما وقع عليه معه الاتفاق من مال بعض الايتام التي كانت على طريق الامانة في قلعة دمشق . وبعد ذلك اداها ايضاً ابن سيفا كل مائة الف . فلما تكلم الناس في الصلح طلب ابن جانبولاذ المال الذي وقع عليه الصلح على يد الدفترى وقال ان جاءني المال في هذا الوقت رحلت . فحولوا له مائة الف قرش وخمسة وعشرين ونادى في الرحيل عن المزه في اليوم الرابع من نزوله واستمر النهب في اطراف دمشق ثلاثة ايام متوالية . وكانوا يأخذون الاموال والاولاد الذكور ولم يتعرضوا للنساء . [١٣٨] . ولما رحل ابن جانبولاذ ارتفع النهب عن المدينة . وفتحت ابواب المدينة في اليوم الرابع . فازدحم الناس على الخروج افواجا افواجا ودخل اليها من نهبت اسبابه من المحلات الخارجية . فكانوا لا يعرفون لتغير اسبابهم ووجوههم . وابتدأت العساكر

الماربة تتراجع الى دمشق ولم يبالوا بما صدر منهم من الفضيحة •  
 « ولما فارق ابن جانبولاذ دمشق سار على طريق البقاع وفارق ابن معن هناك •  
 ورحل الى ان وصل الى مقابلة حصن الاكراد واقام هناك • وارسل الى ابن سيفا  
 يطلب منه الصلح والمصاهرة فاجابه واعطاه ما يقرب من ثلاث كرات من القروش  
 وزوجه ابنته وتزوج منه اخته لابنه الامير حسين • ورحل ابن جانبولاذ من هناك  
 الى جانب حلب • وجاءته الرسل من جانب السلطنة تقبح عليه ما فعل بالشام فكان تارة  
 ينسك فعملته وتارة يحيل الامر على عسكر الشام • وشرع يسد الطرقات ويقتل من  
 يعرف انه سائر الى طرف السلطنة لا بلاغ ما صدر منه حتى اخاف الخلق • ونفذ حكمه  
 من ادنه الى نواحي غزة • وكان ابن سيفا ممتثلاً لامره غير تارك مداراة السلطنة •  
 واتفق معه على ان تكون حمص تحت حكم ابن سيفا وكانت حماة وما وراءها من  
 الجانب الشمالي الى ادنه في تعلق ابن جانبولاذ • وانقطعت احكام السلطنة عن البلاد  
 المذكورة نحو سنتين ووقعت الوحشة وانقطعت الطرقات • »

#### ٤ - سفارة قريش • وكان لفرديناندو الاول وكلاء في الاستانة وقبرس

وسورية ولبنان وغيرها من البلدان التي كان يرنو اليها ، يطلعونه سرأ على اهم ما  
 يجري فيها . وكان له اسطول ضخم ، يعد من اقوى الاساطيل واحداثها عدة ، يجوب  
 عباب البحر الابيض ، ويسطو على سفن الدولة العثمانية من حربية وتجارية • وبياعت  
 احياناً سواحلها بهجوم فجائي عنيف ، فيخرب ويسلب ويعود منها بالغنائم والاسرى •  
 وهذا كان شأن ملك اسبانيا وبقية دول « الحلف الصغير » . وكانت العمارة العثمانية  
 تقابل سفن هؤلاء بالمثل • بيد انها بعد كسرة ليمانتمو لم تكن تجرؤ على الاقتراب  
 من الشواطىء الاوربية • اما في البحر الابيض فالحرب كانت سجالات بينها وبين الدول  
 المعادية لها •

وما بلغت الغراندوق اخبار مقتل حسين باشا وثورة ابن اخيه علي باشا وانتصاراته

مع حليفه فخر الدين على يوسف باشا سيفاً ، سردار الجيش العثماني في سورية والناضول ، حتى اصدر اوامره الى ميخائيل قريع بالسفر حالاً الى قبرس ولبنان وسورية وببلاد فارس لعقد المحادثات مع اروام الجزيرة وابن جنبلات وفخر الدين وشاه العجم . وزوده التعليمات السرية التي يجب ان يتقيد بها .

اولاً : بين جنبلات ويوسف سيفاً واليك تعريب رسالة سرية وردت من الاستانة

الى الفرانديك بتاريخ ٢٩ ايلول ١٦٠٦ :

« ما زال السلطان عاقداً النية على السفر الى آسيا . والاستعدادات هنا قائمة على قدم وساق ، ليتسنى لركابه ان يتحرك في الربيع القادم . وقد صدرت الاوامر الى نائبه في بلاد التتر ان يجهز الى تلك الجهات العدد الوفير من الرجال ، اينضموا الى الحملة حال وصولها . وفي مدة قصيرة شق عصا الطاعة كثير من الثوار ، بينهم ثائر في جهات دمشق ، يقود من خمسة عشر الى عشرين الف مقاتل ، وينزل بالاتراك الحسائر الجسيمة (١) .

« اما والي حلب المدعو علي ، ابن اخ زنبلاط ، الذي خنقه ابن جفاله ، فيواصل فتوحاته وانتصاراته ، بعد ان تغلب على الامير يوسف ، حاكم طرابلس ، وطرده من تلك البلاد . الامر الذي شجع بقية الثوار على التمادي في عصاوتهم . فهو رجل ذو اخلاق نبيلة وصفات ممتازة ، باسل ، مقدم ، سليل امراء سورية القدماء (٣) . دخل طرابلس بنظام وتعقل ، ولم يلحق بسكانها ادنى اذية . فخرج منها مكتسباً محبة اهلهما وجيرانهم ، تلهج السنثم بالثناء العاطر عليه .

« والامير يوسف المشار اليه ليس من نسل الامراء الاصيلين ، بيد انه ذو ثروة ضخمة . هرب من طرابلس على مراكب مسيحية ، ولجأ الى قبرس حاملاً قوماً

(١) يعني فخر الدين .

(٢) يعني الاكراد الذين حاربوا تحت لواء صلاح الدين الايوبي الكردي .

كبيراً من امواله ، تاركا البقية مع اولاده واعز نسائه في داخل الجبال على مقربة من طرابلس . لما وصلت اخبار انكساره الى هنا طابت لسماعها نفوس الكثيرين ، لانهم يعملون النفس بالقبض عليه والاستيلاء على ثروته . وقد اسرعوا فوافدوا الى قبرس من يأتي به وبامواله ، اذا ساعدتم الحظ .

« نحن هنا بانتظار الصلح مع هنغاريا ، او الحرب . فان اشهرت الحرب قد يتعوق السلطان عن السفر الى آسيا ، وكانت العمارة العثمانية تلقت الاوامر بالاقلاع الى طرابلس بئد انها عدلت عن هذه الرحلة ، خوفاً من مكيدة يكيد لها الاعداء الكثر ، الذين ظهروا اخيراً في تلك الجهات (١) . »

ثانياً : حفظ السر — واليك تعريب التعليمات السرية ، التي امر الغراندوق سفيره قريع بان يتمشى عليها :

« التعليمات الصادرة الى الفارس ميخائيل قريع ، بخصوص المهمة التي كلفها في سورية . »

« عليك ان تسافر من ليفورنو في اول مركب يقلع منها الى تلك الجهات . لا تصطحب معك سوى رفيقك (٢) ، وهيبوليت ليونسيني (٣) ، الذي ترسله معك لحنكته

(١) فط ١٣٩ ، ١٢٠ فع ١٦٤ مد ٧ و ٤٢٩ ، ٤٣٠ .

جاء في تاريخ الامبراطورية العثمانية للمؤرخ هامر Hammer ( فط ١٥ ) « ان العصاة كانوا سبعة . بيد ان الخطر الذي كان يهدد كيان الامبراطورية العثمانية نشأ في حاب ، حيث نار جانبولاد الكردي ، بالاتفاق مع الامير فخر الدين الدرزي . فقد كانا يسميان في تحويل سورية الى مملكة مستقلة » ( الجزء ١٥ ص ١٥٠ ، ١٥١ ) .

(٢) جرجس كروجر الالماني ، كاتب اسراره .

(٣) هيبوليت ليونسيني الفرنسي من مدينة ليون . اوفده الغراندوق جاسوساً على قريع . ثم استخدمه في مفاوضاته مع فخر الدين ( فع ١٦٧-١٧٥ ) .

ومقدرته على تسهيل المهمة التي كلفتها • حتى اذا شعرت بحاجة الى استشارته ، اطلعتنه شيئاً فشيئاً على سر مهمتك ، ليعرف الى شؤون تلك البلاد ودخائلها • وقبل سفرك يجب ان تبقي في طي الكتمان الشديد المكان الذي تقصد اليه ، والغاية التي تقصد لاجلها لئلا تسري الاخبار من ليفورنو الى تلك الاصقاع •

« واذا نزلت البر في سورية تظاهر انك قادم لاشغالك الخاصة • واذا التقيت باحد اقربائك او اصدقائك ، اياك ان تبوح له بسر قدومك • لان السر ضروري جداً ، والا حامت حول مهمتك الظنون ، وقامت في سبيلها العراقيل •

« ولا تضع الوقت ، بل اقصد حالاً الى باشا حلب ، متظاهراً ان لك حاجة خاصة لديه ، واطلب مواجهته تحت ستار اطلاعه على حوادث اوربا • وهو امر طبيعي ، لانه يتشوق بلا شك الى سماع الشيء الكثير عنها ، حالما يعلم انك قادم منها •

ثالثاً : المواجهة — « اذهب لمقابلته وحدك ، متجنباً مظاهر الفخخة • لا تطرق

في بدء حديثك سوى اخبار الامراء المسيحيين • قل له انهم مرتاحون الى النجاح الذي اصابه في مقاومة ظلم الاترك • وانك عالم ، بل واثق من استعدادهم لم يد المعونة اليه ، اذ ابدى لهم الرغبة فيها • فان وجدته قد صم اذنيه عن هذا الحديث ، وغير مكترث بمساعدة المسيحيين له ، وبما لديهم من القوات ، قف عند هذا الحد ، ولا تفاتحه بامر الكتب التي تحملها اليه ، والمهمة التي كلفتها لديه •

« وان الفيته مرتاح الى هذا الحديث ، وهو ما نرجحه ، كشفت له النقاب عما اودعناك من الاسرار ، وقدمت له كتابنا ، وعرضت عليه صداقتنا ورغبتنا في محالفتة • اكد له استعدادنا لامداده بقواتنا البحرية ، وشدد ازره ما استطعنا الى شدة سبيلا ، واقناع بقيمة الامراء المسيحيين ليحذوا حذونا • لان هدفنا الاكبر وهدفهم كسر شوكة الامبراطورية العثمانية الغاشمة •

« قل له اننا لا نتأخر ، اذا شاء ، ان نبعث اليه باربع او ست قطع من المدفعية المستعملة في ايطاليا ، شرط ان يمدنا بمعاملة الخبراء الذين نرتبهم على خدمتها ، المعاملة

الحسنة ، وبتخويلهم الحرية لممارسة شعائرهم المسيحية في بلاده ، والعود الى اوطانهم متى شاؤوا ، ومنحهم جميع الضمانات والتسهيلات اللازمة للقيام بوظائفهم • وليكن هذا الوعد كتابة • «

رابعاً : التضامن بين الثوار — « وعليك ايضاً ان تفهمه وتقنعه بان يتصل ببقية الثوار الخارجين على الدولة العثمانية، حتى اذا حسب كل منهم حساب قواه ، استطاعوا ضمها سوية في حرب دفاعية او هجومية • واذا عرف السلطان بهذا الاتحاد يشس من التغلب عليهم سوية ، وبادر الامراء الاوربيون الى معاونتهم بارتياح اكبر • وقد بلغنا ان السلطان يجهز قوات كبيرة لقهرهم • واول من يروم كسره هو باشا حلب • لانه سليل السلاطين الذين استعادوا سورية ، وتركوها لآل عثمان (١) • والاتحاد من الضرورة القصوى • لان الباب العالي لا شك باذل الجهد لفك عرى هذا الاتحاد فيعرض على كل بمفرده الشروط التي يرغب فيها ، حتى اذا تسنى له تفريقهم واضعافهم مزقهم الواحد تلو الآخر ، ضارباً بعهوده عرض الحائط ، كما كان شأنه هو وسلفاؤه • فان حافظوا على التضامن ، ما تجاسر على قتالهم • وان رام القتال قهروه • لان جيشهم احسن تدريباً من جنوده ، واحداث سلاحا • واذا علم الاوربيون باندحاره في آسيا قاموا عليه في الغرب وقهروه بسهولة • وفي وسعنا ان نثير عليه في الغرب شعوبا كثيرة ، ينتظر قوادهم بفارغ الصبر التثبت من تحالف الثوار الشرقيين ، ليستولوا على امنع مرا كزه في الغرب • وجميع الامراء الاوربيين الواقفين على هذه السياسة مستعدون للاخذ بيدهم •

« ولهذا الاسباب نرى من مصلحة باشا حلب وحلفائه ان يرفضوا مقابلة سفراء الدولة ويمتنعوا عن مفاوضتهم ، بل عليهم ان يحافوهم ليمتهب غيرهم • وبين استعدادك

(١) يعني كما قلنا صلاح الدين الايوبي وخلفاءه ، الذين انتزعوا سورية من ايدي الصليبيين • وكانوا من الأكراد كآل جانبولاد •

المسعي له وراء صداقة الثوار ، الذين لم ينضموا بعد اليه . فلا بد من ان تم هذه  
المخالفة بينهم ، ليمضامن اعضاؤها ويتفاهموا قبل ان تباعثهم القوات العثمانية . حتى اذا  
ظهرت قابلوها بالسلاح وفتكوا بها . وقل له ايضاً ان من مصلحته ومصلحة حلفائه  
ان يعتمدوا الاعتماد كله على صداقة شاه العجم ومخالفته ، لان لديه الجيوش الجرارة  
وهو دائب في مناوأة آل عثمان . فان تمت هذه المخالفة تسنى للشاه ان يواصل ضرباته  
لانهاك القوى العثمانية ، وحلفائه في سورية ان يتابعوا فتوحاتهم ويوطدوا مرا كزعم .  
« وليطمئن الباشا وجميع الخارجين على الدولة العثمانية بان الامراء المسيحيين  
ليس لهم مطمع في شبر من اراضي آسيا ، بل جل غايتهم ان يعمل كل بدوره على ذلك  
الامبراطورية العثمانية . حتى اذا فازوا بأمينتهم تركوا للثوار ان يتولى كل منهم مقاطعته .  
ولنا وطيد الامل انه ، اذا ارتفع الخلاف الناشب الان بين الباشا والجمهورية البندقية ،  
حوّل جميع امراء اوربا قوتهم على الدولة العثمانية وشدوا بنوع اخص ازرباشا حلب  
عليها .

« ولك ان تخبره اننا زودناك كتابا الى ملك العجم ، وامرناك ان تقصد اليه بعد  
ان تنتهي مهمتك في سورية ، لتحملة على عقد هذه المخالفة ، وتؤكد له استعداد  
امراء اوربا لمساعدته . ونحن نرى من مصلحة الباشا ان يصحبك برجل ينوب عنه  
في مفاوضة الشاه . بيد انك اذا وجدته مرتبطاً بصداقته ، فلا حاجة تدعوك الى  
الذهاب حتى تلك البلاد . بل تريت في حلب ، او اقصد بشور الباشا الى بقية الخارجين  
على تركيا لمفاوضتهم في صدد هذه المخالفة .

« وكما اننا اوصيناك بالتكتم الشديد في معاطاة هذه الشؤون عليك ان توصي الباشا  
بان يحفظها في سره العميق . فان رشح الى السلطان سعيه لمخالفة امراء النصرانية  
حول على ثوار سورية جميع قوائه ليبدد شملهم قبل ان يتحالفوا مع امراء المسيحيين .  
خامساً : القدس — « بعد ان يدور الحديث بينك وبين الباشا مراراً حول هذه  
الامور وتأنس منه المرافقة عليها ، افهمه اننا ، اذا حالقنا التوفيق في خصد شوكة



الامبراطورية العثمانية ، لا يعود لنا مأرب في تلك البلاد سوى تمكين النصارى من زيارة المدينة المقدسة والاقامة في ظلها مطمئنين . ولهذا الغرض تمنحني من صميم القواد ان يتوقف الباشا في افتتاح هذه المقاطعة والاستيلاء على القدس الشريف ليمسح للمسيحيين ان يسكنوها تحت حمايته ، ويقوموا براحة بال بعباداتهم وشعائهم الدينية . فينزلها جميع الراغبين في النزوح اليها . ولقاء هذه الحماية عده بسعيننا لدى الامراء المسيحيين ليرتبوا له مبلغاً من المال يتقاضاه سنويا ( ١ ) . شرط ان يقطع للمسيحيين حول هذه المدينة اراض يزرونها قحاً وجبوا لعايشهم ، تبلغ مساحتها على الاقل حتى ميناء يافا .

« ولما كان باشا حلب يُعتبر ، وفقاً للمعلومات التي بلغتنا ، كصاحب سورية باسرها ، فان وجدت الامر كذلك لا حاجة لفاحة غير هذه الشؤون ولا تسليمهم كتبنا . اما اذا اشار هو عليك بمفاوضتهم فانزل على شوره واصطحب شخصاً يتدبه لهذا الغرض ، يزوده بكتب منه . وفي هذه المناسبة استخدم تذكرتنا بمثابة كتاب توصية الى اولئك الامراء .

سادماً : التجارة ( ٢ ) — « اذا ولاك الباشا ثقتة حاول اقناعه بالسماح لمراكبنا التجارية والحربية ان تدخل ثغر الاسكندرونة ، او غيره من الثغور التابعة لولايته . واكد له ان هذه التجارة عائدة بالفائدة الجلى عليه وعلى المقاطعة كلها . وان لنا هناك سبعة مراكب حربية مسلحة اتم التسليح نضعها تحت تصرفه . وان شاء امرناها ان تسد بوزاخ الاستانة . فيعجز السلطان عن ارسال المدد لمحاربهه . وهذه المراكب لا تخشى العمارة العثمانية مها بلع بأسها وعظم شأنها . ولا تكتمني مراكبنا بجلب البضائع

(١) تجد في المتن ازاء المبلغ رقمي ٢٥ او ٣٠ الف سنكوت وقد شطب عليها .

(٢) لهذه الوثيقة نسخة في مكتبة الفانميكان (Borghese II. 20 ff. 215-217)

سقطت منها هذه الفقرة لانها من شؤون الغراندوق الخاصة .

الى ثغري طرابلس والاسكندرونة . بل تباع نقداً كمية من محصولات بلاده ، اخصها القمح ، اذا فاض عنها .

« واذا تسنى لك فتح باب هذه التجارة ، وفزت من الباشا بوعده خطي ، اجتهد ان تباع الخبر الكونت مونتكو كولي ربان هذه المراكب ( ١ ) . حتى اذا رأى مناسباً قصد الى ذينك الثغرين ، كما يقصد الى السواحل الفنيقية ، وتمون منها الماء . وليكن كتابك من نسختين . واجعل مكافأة الساعي مائتي قطعة من ذوات الثمانية الفرنكات يقدمها الربان المذكور اعلاه الى حامل تلك البشرى . واكتب لنا ايضاً بذلك عن طريق الاسكندرونة ، على يد قنصلها الفرنسي . وسلم الكتب الى اول مركب فرنسي قاصد الى مرسيليا او الى البندقية حيث يسلمها الى قنصل فرنسا في هذه الجمهورية ( ٢ ) . ام الى مكتب بشيوليني في مرسيليا ( ٣ ) . او الى كوزيمو دلسيرا ( ٤ ) . في مسينا . واذا وجهت الكتب عن طريق قبرس فارسلها الى برتلماوس مونتر الهولندي المقيم في الملاحه بالجزيرة ( ٥ ) ، وهو بدوره يوجهها الى ممتى ترنسيو ( ٦ ) في ليفورنو .  
سابعاً : الشاه والبطريك الماروني — « واذا انجزت مهمتك في سورية ووجدت

( ١ ) — Montecuccoli

( ٢ ) كانت ماريا مديشي ملكة فرنسا ، ابنة اخ الغراندوق فردناندو الاول ، فكان القنصل الفرنسيون يلبون رغبته بارتياح .

( ٣ ) Pesciolini

( ٤ ) Cosimo del Sera

( ٥ ) Bortolomeo Munter كان وكيلا سريا للغراندوق . وجدنا له بين الوثائق التسكانية تقريراً قيماً عن جزيرة قبرس ، قدمه الى الغراندوق ( مدع كراس ٤ و ٢٥٠ ، ٢٦٠ ) .

( ٦ ) • Matteo Terenzio

باشا حلب راغباً في صداقة شاه العجم قصدت اليه وقدمت له كتابنا وفاوضته مشافهة بالنوع الذي فاوضت به باشا حلب . فتحمله على انتهاز الفرصة والاتصال بالابطال العديدين الخارجين على الدولة العثمانية ، ليمتضامن معهم عليها . واعتذر له عن تقصيرنا في مكانته بعد وصول البعثة التي اوفدها اليها . فقد كنا كما تعلم نتحين الفرصة المناسبة لارسال الخبراء الذين طلبهم منا . فحال بعد المسافة وخطر السفر الى بلاده دون رغبتنا . واكد له اننا على اتم الاستعداد لخدمته بما في وسعنا لدى صدور اول اشارة منه اليها .

« واما البطريرك الماروني، الساكن في دير العذراء في جبل لبنان (١) ، فقد كتب لنا عن حالة المسيحيين التبعية في تلك الجهات . فاحمل اليه الكتاب المطوي هنا . واذا سمحت لك الفرصة بالمرور قريباً من ذلك المكان ، زره من قبلنا واجتهد في اكتساب صداقته ، لانها لا شك نافعة في مشروع الاراضي المقدسة الذي نعده . وان لم يتسن لك المرور ارسل جوابنا اليه (٢) .

« صحح . الحاقاً لما قلناه سابقاً عن فتح باب التجارة مع تلك الجهات ، لتتمكن من اكبنا من الرمو في ميناء طرابلس سورية ، نرغب اليك اذا نلت الاذن الرسمي بذلك ان تبادر الى اعلام اميرنا حالما تعرف انه وصل بالمراكب الى الثغور القريبة ، كـثغور فنيقية او غيرها . ولتكن الكتب التي توجهها الى الكونت مونتكو كولي مكتوبة بالاروقام ، لان لديه منها نسخة مماثلة للنسخة التي بيدك . وعليك ان تقيده اذا كان بإمكانه ان يجلب الى اسواق طرابلس البضائع التي غنمها (٣) ، او ان يعرض فيها للاسرى الذين وقعوا في قبضته . واتفق مع الاميرال على المبلغ الذي تراه، مراعيًا الفرص التي تنفسح امامك (٤) .

(١) البطريرك يوسف الرزي (١٥٩٧-١٦٠٨) . وكان ساكناً في دير قنوبين .

(٢) راجعه في فع ١٦٥ . وهو يحمل تاريخ ٢٥ كانون الثاني ١٦٠٧ .

(٣) من المراكب او الثغور العثمانية . (٤) مد ٥ و ٤٩-٥٤ .

٥ - تجرير البعثة . وارفق الغراندوق سفيره ببعض الهدايا الثمينة ليقدمها الى علي باشا مع كتاب منه اليه ، وتذكرة هوية يستخدمها السفير بمثابة توصية به لدى الاشخاص الذين يتفاوض معهم .

ازلا : الهدايا والبضائع — و اشار قريع على الغراندوق ان تحمل المراكب الى سورية كمية من الارز وشتى الحبوب . ومجموعة من الحرائر والاجواخ التسكانية . ولا بأس من تصدير كمية من البن وقليل من الكينا . وليكن الراسمال النقدي من الريالات التسكانية . فيعود تصرفها في سورية بارباح لا تقل عن ٢٥ بالمئة . وتوسق المراكب في عودتها بكمية من الرماد الدمشقي (١) ومن الغزل والاصواف الحشنة للتنجيد . كل هذه البضائع رخيصة الثمن وافرة الارباح (٢) .

اما الهدايا فيحسن ان تكون مؤلفة من طاقم عسكري فاخر لقامة رجل معتدلة ، مركب من خوذة ولائمة وترس وما شا كل ذلك ، مع بعض الطبنجات المرصعة بالذهب وقطع من الاجواخ لبطانة الباشا (٣) .

ثانياً : نفقة السفر — وقدم السفير ايضاً بياناً بنفقات السفر برآ ، رأينا من الفائدة تعريبه ، لمعرفة ما كانت تتطلبه اسفار البر في ذاك العهد من الاكلاف والوقت : « لا حاجة الى الكلام عن نفقات السفر من ليفورنو الى الاسكندرونة ، لان سموك قد امرت باعداد اللازم له .

« المسافة من الاسكندرونة الى حلب ثلاثة ايام ركوبا يلزم لقطعها اربعة جيات ، ثلاثة لنا والرابع لاجمالنا . فضلا عن سائس . تبلغ نفقة الحينول اثني عشر سكوتاً ، باعتبار سكوت واحد في اليوم لكل رأس منها .

(١) الذي كانوا يستعملونه لصنع الزجاج النقي والبلور الفاخر . راجع فع ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) مد ٥ و ٨٠ .

(٣) مد ٥ و ٨١ .

« واذا كان الباشا خارج حلب علينا ان نقصد الى دمشق ام الى القدس ، او حيث  
 حلت ركابه . المسافة من حلب الى دمشق ثمانية ايام . ومن دمشق الى القدس اثنا  
 عشر يوماً . ولا بد لهذه الرحلة من استئجار اربعة ركائب ونفقة المعاش لاربعة اشخاص  
 بينهم طباطباخ سأنتيقيه من ذويتنا في حلب . »

« والافوق في اسفار البر ان ترافق القوافل تخفيفاً للنفقة وتجنباً للاخطار . وان  
 لم نجد قافلة مسافرة الى تلك الجهات نظراً للحرب المستعرة فيها ، اضطررنا الى استئجار  
 عشرة او اثني عشر نفر مسلح ، ليرافقونا ويؤمنونا على حياتنا واحمالنا . والا استحال  
 علينا السفر . وهم يعاهدوننا على درء الاخطار عنا ، بيد انهم يطالبوننا بالاجرة والنفقة  
 التي يجب ان تحسب مضاعفة للذهاب والاياب . »

« واذا شئت سموك ان نقصد الى بلاد المعجم اضطررنا الى شراء اربعة بغال . لان  
 الاستكواء لا يوافق في رحلة طويلة . ولا مناص في هذه الحال من استئجار سائس  
 للخيل ، ويعوزنا المبلغ الكافي للنفقة علينا وعلى الخيل ذهابا وايابا . ولا بد من ان  
 يكون المبلغ زائداً عن هذا التقدير ، فالافوق ان يفيض عنا من ان ينقص . على ان  
 نقدم حسابا عنه لدى رجوعنا . والعملية يجب ان تكون من الريالات التسكانية وبعض  
 النقود الهنغارية ( ١ ) . »

ثالثاً : تذكرة الهوية — وهالك تعريب التوصية العامة التي سلمها الغراندوق الى  
 سفيره ليبرزها عند الحاجة . »

« لما كنا قد اوفدنا الناموس ميخائيل قريع لقضاء بعض المهام المتعلقة بنا في سورية  
 وقد يضطر ان يقصد حتى بلاد المعجم ، رأينا ان نزوده كتابنا هذا المفتوح ليعرفه  
 الامراء والاعيان الذين يقابلهم كمنسوب من طرفنا . فرجأونا الى جميع الذين يطلعون  
 على هذا الكتاب ان يقبلوه بصدر رحب وان يخولوه الحماية والرعاية ، ويسهلوا عليه  
 مهمته ويساعدوه في ما يحتاج اليه . ونحن نعاهدهم بدورنا على معاملة الاشخاص

(١) مد ٥ و ٨٩ .

الوافدين من طرفهم والمزودين بتوصياتهم المعاملة نفسها . واشعاراً بذلك قد ذيلنا هذا الكتاب بتوقيعنا وختمناه بخاتمة ( ١ ) . «

رابعاً : من فردناندو الى علي باشا — واليك تعريب الكتاب الذي وجهه الفرانديق الى علي باشا على يد سفيره :

« والي حلب في ٢٥ كانون الثاني ١٦٠٧

« فردناندو

« الى صاحب السمو والصولة ، السيد علي باشا ، سليل بيت جنبلات النبيل ، والي حلب ودمشق وطرابلس سورية ، وكامل الاراضي المقدسة .

« ان وقوفكم الجريء الشريف في وجه آل عثمان الظلمة قد اكسبكم عطف جميع الالهراء المسيحيين وثناءهم . وهم يتمنون لكم من صميم افئدتهم مزيد العز والفخار . اما نحن الدائبين في مناوأة هذا العاتي الكبير ومضايقته باغربتنا ومراكبنا ، فتجدونا مستعدين الاستعداد كله لشدة ازر جميع الخارجين عليه .

« ولما كان الفارس ميخائيل قريع عائداً الان الى حلب وطنه ، وهو من معارفنا واحبابنا كلفناه ان يسر اليكم اموراً عائدة لمصلحة الطرفين . فنأمل ان تصغوا اليه بارتياح وتعرفوه عن الخدمات التي نستطيع ان نوديها لكم . ونختم باهدائكم اعطر السلام واخلصه . «

### المستعد لخدمتكم ( ٢ )

وارفق الفرانديق هذا الكتاب بضاقم فاخر من اللباس الحربي مرصع بالذهب ومبطن بالحزير . مع بندقيسة بلولب من احسدت طراز ، وطبنجتين تمينتين بغمديها وكامل لوازمها ( ٣ ) .

(١) مد ٤ و ٥٧ .

(٢) مد ٥ و ٥٥ .

(٣) مد ٥ و ١٤٢ .

## الفصل الثاني

### المعاهدة

١ — البعثة في حلب • لدينا عن سفر البعثة ومرورها بجزيرة قبرس ، وترتيبها في مدينة طرابلس ، واستقرارها في حلب ، اربع رسائل ، اثنتان لقربع بالايطالية ، واثنتان لرفيقه ليونسيني بالفرنسوية القديمة :

اولا : في جزيرة قبرس — بعيد وصول البعثة الى قبرس كتب ليونسيني من الملاحه ، في اول اذار ١٦٠٧ ، الى كاتم سر الغراندوق ، يخبره عن اقلاعهم من ليفورنو مساء ٣٠ كانون الثاني ١٦٠٧ ، ومكوثهم في البحر ثمانية عشر يوما ، تارة يغالبون الارياح والعواصف ، وطوراً يستسلمون للنسيم الصديق ، حتى بلغوا الملاحه في قبرس • والرسالة طويلة لا تخلو من فكاهة ، بيد انها خالية من المعلومات التاريخية ، فلا فائدة من تعريبها للقراء او تلخيصها (١) •

اما رسالتا قربع ففيهما الدسم كله • فقد كتب في التاريخ عينه الى الغراندوق والى كاتم اسراره ، يخبر عن نزوله السبر في الملاحه ليفتس عن مركب يقلهم الى طرابلس اللبنانية ، وبه يتنسم الاخبار • ولما لم يجد مطلوبه ركب برآ الى فالماغوستاء حيث امسكوه لاشتباهم بكل الاجانب القادمين الى الجزيرة ، وقد قتلوا منهم خلقاً كثيراً • بيد انهم لم ينزلوا به الاذى لمعرفته لغة البلاد وتصريحه انه حلبي عائد الى

وطنه • واكتفوا باحضاره امام حاكم الجزيرة التركي ، الذي سأله عن اخبار اوربا السياسية • فاجابه انه تاجر لا يفقه من السياسة شيئاً • وفيما كان يحادثه دخل عليه قيم داره واسرّ اليه عن ثورة الف وخمسمائة تركي في الجزيرة انضموا الى المسيحيين فاضطرب الحاكم لهذا النبأ وأخلى سبيله • واتصل به ان احد اعيان الأتراك تنصر اخيراً وهرب بمئة من رجاله الى مالطه ، ليهرب منها الى اسبانيا •

وواصل قريع مسيره الى نيقوسيا ، حيث واجه مطران الاروام واتفق معه على ان يشور رعاياه حالما يظهر الاسطول التسكاني في مياه الجزيرة • فافضى اليه الاسقف بفروغ صبرهم من ظلم الدولة العثمانية ، واستعدادهم لخلع نيرها ، اذا شاء الغراندوق مساعدتهم • وهم يثقون به اكثر من ثقتهم بملك اسبانيا او بالجمهورية البندقية (١) •

ثانياً : البعثة في طرابلس — واستأنفت البعثة السفر الى طرابلس ، وتابعت سيرها حتى حلب • فكتب ليونسيني من هذه المدينة في آخر ايار ١٦٥٧ ، كتاباً ضمنه معلومات طريفة عن مهمتهم واحوال الباشا والمدينة والولاية ، رأينا ان نعرب للقراء اهم فقراته وان نلخص البقية • وفيه ، فضلاً عن لغته القديمة ، من العموض والابهام ما تعمده الكاتب حيناً ، وتخبط فيه احياناً (٢) :

« سافرنا من الملاحه في ١٧ اذار قاصدين الى طرابلس ، حيث قضينا ثلاثة عشر يوماً ، كنا نستطيع في غضوننا زيارة جبل لبنان المقدس ، لاننا كنا على مسافة يوم واحد منه (٣) • فلم يرض (٤) بالرغم من الحاحي ، ومن زيارة الحاكم نفسه لنا ، وقد اوفده البطريرك بصحبة كاهن وطني • فاكتمى بتسليمه رسالة الغراندوق الى ذلك

(١) مد ٥ و ٦٤ • راجع ايضاً كتابه الى الغراندوق و ٥٨ •

(٢) نشرنا ما يتعلق منه بفخر الدين في فط ١٤٢ وفع ١٦٧ •

(٣) يعني على الارجح الارز او جبة بشري ، التي كانت تعرف في ذاك العهد بجبل

لبنان •

(٤) اي قريع •



الحبيرة • واصر على ان لا يسافر الا بصحبة القوافل • فاضطرونا الى التعوق في  
طرابلس حتى اول نيسان • ثم بارحناها مع قافلة فوصلنا الى حلب بعد ثمانية ايام ،  
صباح احد الشعانين ، سالمين نحن واحمانا ، التي ازعجتنا كثيراً في رحلتنا •  
« وبعد الاعياد قابل الباشا وقدم له الهدايا الفاخرة ، فتقبلها بارتياح ، واطهر الميل  
الى المشروع الذي عرضه عليه •••• ونحن نغذي الامل باستئناف السير الى بلاد فارس •  
وهنا يأخذ الكاتب على قريع تسرعه في تقديم الهدايا ، وثقته العمياء بالباشا ، الذي  
اصطلح حديثاً مع الباب العالي • اما السفير فيظن ان صلحه محض تظاهر ، وان  
مقاصده الحقيقية ستتكشف عن قريب •

ثالثاً : حوادث حلب — ويتدمر ايضاً ليونسيبي من قريع لانه لا يشر كنه في  
المهمة ، ويحظر عليه الخروج الى المدينة الا نادراً وبرفقتة • فهو ملازم غرفة الواقعة  
خارجاً عن المدينة ، لا يتركها الا لزيارة تاجر من مواطنيه الفرنسيين ، حيث يتسنى  
له تنسم الاخبار والكتابة • وهو يشك في نجاح السفير ، لانه سلك كالدائن الذي  
يسلف ماله دون التثبت من مقدرة مدينه على الوفاء • ثم ينتقل الكاتب الى سرد ما  
اتصل به من الاخبار ، فيقول :

« وصل الى هنا مندوبان من الاستانة الى الباشا • الاول جاء بفرمان سلطاني  
يخوله تعيين السناجق وعزل الباشاوات الخاضعين لولايته ، وتثبيتهم • وقدم له خلعة  
سنية من الجوخ المطرز بالذهب ، انعم بها السلطان عليه لارتياحه الى ما ارسله اليه من  
المال بعد الاتفاق ، وقدره مئة الف قرش • اما المندوب الثاني فلم يخرج الباشا للقائه  
كما فعل مع الاول ، الذي انتظره مع بطانته على مسافة نصف ميل من المدينة • مع  
ان الثاني وصل بحاشية معتبرة • وبعد وصوله بيوم واحد واجهه الباشا وطلب اليه  
خمسين الف قرش يقدمها للخزينة السلطانية سلفة على مال السنة القادمة • واكبر  
الظن ان الباشا سيرضيه بما يقدر له تدبيره ، لضيق ذات يده • لانه بحاجة الى اربعين  
الف قرش في الشهر لرواتب جنوده • فيخزنته ابدأ فارغة •

رابعاً : زواج الباشا — « وقد ازدادت الان نفقاته عن قبل • لانه تزوج حديثاً بنت الامير يوسف ، باشا طرابلس • وصلت العروس الى هنا منذ شهر ، وجرى لها استقبال فيخم • بيد ان الامير فيخر الدين ، الذي لم يكن بعد قد اصطاح مع الامير يوسف ، كتب الى الباشا يلومه على اتحاده مع عدوه ، ويهدده ، ان هورضي بتجهيز شقيقته الى ابن الامير يوسف ، أن يمنعهما بالقوة • الامر الذي حمل الباشا على منع ابنة سيفا من دخول قصره ، وانزالها بيت عمه لها في المدينة ، واجابة فيخر الدين انه فاعل كل ما يطلبه منه ، لانه يفضل صداقته على اي شيء آخر •

« وفي هذه الاثناء بلغنا خبر محاصرة فيخر الدين لطرابلس ليقبض على الامير يوسف بيد ان هذا الثعلب العجوز ، لما أحس بالخطر ، هرب الى قلعة الفرنجي (١) ، البعيدة عن طرابلس مسافة يومين • وهي اجمل قلعة في اراضي الامبراطورية العثمانية ، وأمنعها • وبعد ان شد فيخر الدين الحصار على طرابلس دون ان يقوى عليها ، ذهب لمحاصرة ذلك القصر ، الذي انتزعه الامير يوسف منه في السنة الماضية • وما هي بضعة ايام حتى وقع في قبضته • بيد ان الامير يوسف بعث بالرسل الى هذا وذلك • وعرف كيف يتدبر الامر ، وما زال حتى ارضى بالمال الاثنين معا •

« وقد تزوج علي باشا من ابنته دون احتفال • واعدأ باقامة مظاهر الافراح طالما ينتهي من اتحاد ثورة نشبت حديثاً في مملكته • ثم جهز الى طرابلس شقيقته المخطوبة لابن الامير يوسف • بعد ان تنازل هذا عن طلبه الجنوني ، بان يُعطى ولاية مدينة حماه مهراً لاخته • وكان الباشا اوشك ان يعيد العروس الى طرابلس •

« عين السلطان الامير يوسف والياً على دمشق ، على ان يبقى ابنه متولياً لطرابلس ويقال ان باشا دمشق الحالي لا يعارض في تسليمه المنصب اذا دفع له مائتي الف قرش ، او على الاقل مئة وخمسين الفاً • اما اذا ابى الدفع امتنع عن التسليم وان رضي الاهالي • وقد جمع الباشا وجوه المدينة وشاورهم في الامر ، فقر رأيهم على ان يجند كل حي

(١) قلعة الحصن في عكار •

من احيائها عدداً من الانفار ، فيجتمع لديهم جيش لا يقل عن اثني عشر الفاً . اما  
الغاية من حشد هذا العدد الغفير من الرجال فمجهولة حتى الان . وقد داخلهم الخوف  
هنا من ان يُستخدم هذا الجيش ضدهم ، لانهم يعلمون ان الدمشقيين حاقدون على باشا  
حلب ( ١ ) . اما هو فقير مكترث لهذا الامر .

خامساً : حوادث الولاية — « سرت هنا اشاعة مؤداها ان الباشا ارسل هذين  
اليومين وفداً ومالا الى مدينة وان ، التي احتملها شاه العجم . وبعضهم يقول انه ارسلها  
الى كراميت ، التي ثار حاكما وانضم اليه جمهور من العصاة . وهم يجاهرون بعزمهم  
على تخريب البلاد ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

« ثورة بني العقيل ( ٢ ) ، على بعد ثلاثة ايام من هنا ، قد اخدها الباشا بحملة جهزها  
عليهم . وهذا كان شأنه ايضاً مع ثوار عينتاب . وكان يخشى ان يقلقوا كامل الولاية .  
بيد ان المال والكلام المعسول قد اصلحما كل شيء .

« اما ما خص شؤون المدينة فلا يجسر المرء التجول فيها ، للتعديت المشينة التي  
ترتكبها العساكر ، وهم زهاء عشرة آلاف ، وكلهم من المسترزقة الملقبين بالسكبان .  
واذا قدمت عليهم شكوى زادوا قحمة ، فلا رادع لهم عن النهب والحراب ايما شاؤوا .  
لانهم يصرحون علناً ان الباشا مدين لهم بولايتهم على المدينة ، وبالاحتفاظ بها . اما  
هو فيتحملهم خوفاً من ان يتخلوا عنه ، لا سيما ان الثورات تنشب في مملكته لادنى  
سبب . وفي خارج المدينة عصاة يمتنعون عن تأدية المال .

سادساً : رسوم الزيت — « وصل الى هنا فارس دوق مانقوفا ، المدعو ميخائيل

(١) لانه حاصر دمشق في السنة السابقة ونهب احياءها الخارجية وغرّمها ١٢٥

الفاً ، كما سبق القول .

(٢) في الاصل Aquille ولعلها قبيلة .

قريع (١) . فاتصل بالباشا وقدم له الهدايا الثمينة واكتسب صداقته . ونال منه كمرك الزيت بكامله ونصف كمرك الحرير مع رسوم الخان ، اعني ضمان المخازن والغرف التي فيه (٢) . وهو ما يدر عليه من ثمانية الى عشرة آلاف سكوت في السنة ، حسب كميات الزيت والحرير التي ترد اليه وتباع فيه . ويكفي القول انه عرف ان يستفيد . وهو يغذي الامل بان يمنحه الباشا وظيفة امين الكمرك الاول ولقبها . وفي هذه الاثناء تراه يتمتع بموارد هذين الرسمين . وقد كلف ولدي اخيه الاشراف على العمل ، واحتفظ هو بالامتياز ، وفاز حتى الان بإرباح تذكر . ولا يتوجب عليه لقاءها سوى ان يقدم للباشا ثمانمائة سكوت في السنة ، اي مئة وخمسين سكوت في الشهر وكمية من الزيت لطبخه . ويظهر ان رجوعه الى ايطاليا هو آخر ما يفكر فيه (٣) .

سابعاً : قلق الغراندوق — هذه الوشاية اقلقت بال الغراندوق ، وظن ان سفيره قد خدعه ، محولاً لمنفعته الشخصية الهدايا والاموال التي سلمها اليه ومستثمراً المنصب الذي رفعه اليه . فكتب اليه كاتم سر الغراندوق في ١٣ تشرين الاول ١٦٠٧ ما يلي تعريبه :

« بعد وصولك الى حاب لم تتسلم منك سوى كتابين صغيرين ، وددنا عليها وسلمنا الجواب الى رفيقك الذي اوفدته الينا . مع اننا كنا متشوقين للاطلاع ببعض الوضوح على اخبار تلك الجهات . وسموه راغب في معرفة ما آل اليه امر ذلك الكتاب الذي كلفك تقديمه للباشا ، وكيف تلقاه وهل في نيته الاجابة عليه . »  
« وقد بلغته اخبار مفادها انه قد تأهل ببنتي باشوي طرابلس ودمشق ، وانه

(١) يتظاهر انه لا يعرفه خوفاً من وقوع الرسالة في ايدي الاتراك . بيد انه تنهز الفرص ليثلبه ويشير ظنون الغراندوق فيه .

(٢) لعله خان الكمرك القائم حالياً .

(٣) مد ٥ و ٦٦-٦٨ .

عقد الصلح مع السلطان ، وادى له الاموال الاميرية ، واوفد اليه اكثر من مندوب .  
 هذا ما كتب الى سموه من الاستانة ( ١ ) . وهو يرغب اليك ان توقفه على كل الشؤون  
 الراجعة الى هذا الامر ، وعلى الآمال التي يمكنه ان يعقدها عليه .  
 « ومما ادهشه ايضاً انك لم تكتب كلمة عن ليونسييني ، مع ان سموه يرغب في ان  
 تستخدمه وتتيح له الفرص ليتعرف الى البلاد والى اعيانها ، ويتمرن على سياستها .  
 واذا كان للباشا مطالب في هذه الاطراف ، فاكتب لنا لنقضها له . واختم باهدائك  
 اخلص التحية ، سائلاً المولى ان يمنحك كل خير ( ٢ ) . »

٢ - التعريض على الثبات . وكان قبل هذا الكتاب قد زود الفرانديوق سفيره  
 باخبار يستعين بها لتشجيع علي باشا وجميع العصاة على الثبات في موقفهم ، والمضي في  
 تبسطهم على حساب الدولة العثمانية .  
 اولاً : اوربا ضد الاتراك — فكتب كاتم اسراره الى ميخائيل قريع بتاريخ ٨ آب  
 ١٩٠٧ يخبره ان امبراطور هنتاريا ، بعد ان اوفد رسولا يعرض على السلطان شروط  
 الصلح عاد فاستدعاها فجأة ، وعقد النية على مواصلة الحرب . وقد اوفد الى ميدان  
 القتال ست فرق من الرجال والخيالة ، كل فرقة مؤلفة من ثلاثة آلاف محارب .  
 فتعهد ملك اسبانيا بنفقة احدى هذه الفرق ، وقدم امير ساكسونيا للامبراطور  
 ستماية الف ريال للعرض عينه ، وعاهده بقيمة امراء المانيا على ان يمدد كل منهم بفرقة  
 من الرجال .

وان ملك اسبانيا يجهز لحرب الاتراك ستين غراباً ومركباً ، خلاف ما يجهزه نائباها  
 في نابولي وصقلية . وستلتمتي قريباً في ميناء مسينا اساطيل الكرسبي الرسولي وجنودها

(١) لم يقل من حلب ائلا يكشف امر ليونسييني الذي كان يتجسس عليه . بيد  
 ان ما يلي ذلك انه تلقى هذه المعلومات من المذكور .

وميلانو ومالطه ، فضلا عن المراكب التسكانية . ناهيك عن ان ملك اسبانيا قداوصى على كميات هائلة من الاسلحة والمدافع والالبسة العسكرية ، وعلى مقادير كبيرة من الكعك والبسماط ، وغير ذلك من اجهزة الجيش وزاده . وعقد مع الفلمنكيين هدنة ثمانية اشهر . والمسعى تبذل الان لابدال هذه الهدنة بصلح دائم ، ليتمكن من تحويل جميع قواته على الدولة العثمانية . والجمهورية البندقية تؤلف جيشاً لا يقل عن اثني عشر الف ، وتعد لنقله سبعين غرابا واربعة غلايين ، وهي موطدة النيسة على استرداد ما انتزعه الاتراك منها . بيد انها تتظاهر ان هذه الجيوش والمعدات تجهز خوفا من ملك اسبانيا ( ١ ) .

«اما الغراندوق فقد اصدر اوامره الى اسطوله باحتلال جزيرة قبرس . وان فشل في اخذها او الاحتفاظ بها ابقى في تلك البحار ثمانية مراكب حربية وخمسة عشر غرابا مجهزة باحدث الاسلحة واشد الرجال . وهي قادرة على تحطيم عمارة الدولة العثمانية ، اذا قصدت الى تلك الجهات بنمية التصدي لعلى باشا جنبلات وحلفائه الخارجين عليها . وسموه على اتم الاستعداد للتفاهم معهم ومواصلة انجسادهم . فليتشجع الباشا وحلفاؤه على الثبات في موقفهم ومواصلة فتوحاتهم .

ثانياً : ما يعده السلطان ضد جنبلات باشا — « بلغ سموه بطريقة سرية من الوزراء اصدقائه القائمين في الباب العالي نفسه ، ان السردار الذي تعين لقيادة الحملة على ثوار سورية ( ٢ ) ، قاصد اليهم بجنان هامد . وهو يحمل معه السموم وشتى العقاقير القتالة لاهلاكهم . وسيعمد اولا الى المداهنة والغش ، خاصة مع علي باشا ، الذي يضم له السلطان كرهاً ما يعده كره . وهو زاحف بستين الفاً ، بينهم عشرون الفاً من الانكشارية ، وقاصد رأساً محاربة جنبلات باشا ، ان لم يستوقفه سائر الثوار .

(١) لانها كانت متعاقدة مع تركيا ، كما سبق القول ص ١٢ .

(٢) مراد باشا القبوجي .

« على ان الانكشارية ليسوا من الاصليين ، بل ان اغلبهم من النور ومواليه  
الانكشارية . فبين العشرين الفاً لا تجد ثلاثة آلاف نزلوا ميسادين الحرب واكتفوا  
بناوها . ولما كانت الدولة قد استخدمت وسائل القسوة لاجبارهم على التجند وعمور  
البوسفور ، تراهم ينسلون ليلا من المعسكر ويختبئون هنا وهناك . فلا يبقى مع السردار  
لدى وصوله الى حلب غير النزر القليل منهم . »

« فاذا اتحد علي باشا مع بقية العصاة ، وجهز جيشاً منظماً ، كالذي قاده عند ركوبه  
على دمشق ، تفوق لا محالة على الوزير القادم عليه ، ومزق جيشه تمزيقاً . لان افضل  
جنود الدولة التركية بقيت في هنغاريا محافظة على الحدود والقتال ، خيفة ان يمتنع  
الامبراطور عن عقد الصلح . واذا تيسر لجنبلط باشا التغلب على الوزير ، تمكن من  
الزحف حتى الاستانة ، لان السلطان لم يعد لديه جيش يستخدمه لتوقيفه . »

« فعليه اذن ان يرفض كل مفاوضة يعرضها عليه الوزير سواء اكان اساسها الصلح  
ام المعاهدة . وان لا يقبل مندوباً او وفوداً من الاستانة ، لانه لا محالة واقع في شراكم  
وسيعرض السلطان عليه ما شاء من الشروط والعهود ، طمعاً في القبض عليه واهلاكه  
كما فعل بكثيرين غيره من العظماء . »

« صح . بعد كتابة هذه الاسطر عادت الغلايين الى ليفورنو دون ان تتوقف في  
حملتها على فاماغوستا . فقد شاءت التقادير ان لا تجد في انتظارها غلايين الكونت  
مونتكو كولى الخمسة . فحاولت احتلال المدينة بثمانمائة وستين جندياً فقط . والدليل  
الذي رافق الحملة لم يكن عند حسن الظن به . وكانت الابواب مسدودة بالتراب ،  
والسلام جاءت قصيرة غير وافية بالمرام . ولم تحضر الغلايين والمرابك الا في اليوم  
الثاني . فانزلت الى البر التي رجل قصدوا الى قرية تبعد اربعة اميال عن الساحل ،  
على امل ان يثور الاروام لدى رؤيتهم ، وينضموا اليهم لمحاصرة فاماغوستا . بيد ان  
القائد رأى من العبث الاعتماد على هؤلاء . فاكتفى بابقاء المرابك المسلحة والغليون

في تلك البحار لمضايقة الأتراك . والاختبار ترد الى معنا منبهة بضعف جيش الحملة وسوء تدريره . فليطمئن الباشا بالا وليتوقع لنفسه فوزاً باهراً ( ١ ) .

ثالثاً : خطاب السفير — عثرنا بين الوثائق المديشية على نص الخطاب الذي اعده قزيرع ، او بالاحرى أعد له ، ليقبلوه بحضرة علي باشا جنبلاط ، مهتماً اياه باسم الغراندوق موقعه ، بما ناله من النصر في المعامع التي خاضها . والخطاب طويل فنقتصر على تعريب مقدمته :

« اي لسان لا يجمد ، واي اذن لا ترتعش لذكرى المصراع الفظيع الذي ينتظر عمك ، رحمة الله عليه . فبينما كنت اغذي الامل بالابتهاج مع سعادتك للنصر الذي احرزته على اعدائك ، اذ بهذه المأساة تنتصب امام عيني . فقد قتلته سنان باشا بن جغاله بلا شفقة وبلا ادنى ذنب ارتكبه . بل مدفوعاً من الحسد الذي ينخر قلبه المتحجر ، ويمتزج فيه بالعجرفة والخيانة .

« بيد ان نفسي ظابت للعقاب الذي انزله به الله تعالى . فلم يكتمف باهلاك جنوده بل افقده سمعته وشرفه ، فمات كمداً .

« ولما لم احظ برؤية المغفور له حسين باشا عمك ، لم احرم نشوة السرور ، التي هزتني لثأر ابن اخيه له . وقد حرمتني المشيئة الالهية مشاهدة سعادتك ومسقط رأسي مدة عشر سنين ، بيد انها يسرت لي العود في هذا الوقت السعيد ، لا يتهدج مع سعادتك بذكرى فتوحاتك الموقفة . »

وهنا يلج الخطاب باب المديح على مصراعيه ، فيبذل له النعوت وبعده الصفات التي تفرد بها ، من بطولة وعدل وحلم وكرم . ويبالغ فيها المبالغة كلها ، شأن الشعراء الشرقيين ، غير انه يشبهه بالهة وثمينين من ابطال القرب ، مما يدل على ان الخطاب قد اعده له احد كتبة اسرار الغراندوق ، بعد ان استقى منه بعض المعلومات الخاصة .



ثم يتخلص الى مديح الغراندوق فينزله اعلى منزلة بين الامراء المسيحيين • ويركز  
 لعلي باشا محبته له واستعداده لتبليغ رغائبه وشده ازره في سياسته المعادية للترك •  
 ويقدم له اعطر التهاني باسم الغراندوق لانتصاراته الباهرة ، ويتمنى له دوام التوفيق  
 مما لا يخرج عن الكلام المبذل في مثل هذه المواقف الخطابية. ومما يلفت النظر تشبيهه  
 بالامام علي الذي ثار لولديه حسن وحسين المغدورين ، كما ثار هو علي باشا لعنه حسين  
 ويفسر عن التركية اسم « جان بولاد » بالنفس البولادية (١) •  
 ولا نعرف اذا كان هذا الخطاب بقي طي الاوراق ، ام تسلاه السفير على مسامع  
 علي باشا بحرفه ومبناه •

٣ - المعاهدة السياسية التجارية • لم تكن مهمة السفير من الهيئات التي  
 يفوز بها المرء بمجرد المديح والاعطاء • كان عليه ان يتصل بالباشا دون ان يكشف  
 له سر مهمته ، او يثير الظنون فيه • وان لم يكشف السر ، فكيف يثير اهتمامه  
 ويكسب ثقته • وان فشاء فهل يأمن غضبه ويدراً عقابه ، وقد يكون العقاب الموت  
 بلا رحمة • وان نجأ فهل يتقي شر جواسيس الباب العالي المحيطين بالباشا المشبوه ،  
 يعدون عليه خطواته وكلماته وعلاقاته بكل من يتصل به • فتذرع قريع بالفطنة  
 والجرأة ، وهما قلما يجتمعان ، ونال فوق ما خطر له ولسيده علي بال •  
 اولاً : كتاب السفير — وما ان صار العقد بين يديه حتى اسرع بتكليف  
 رفيقه ليونسيي ايصاله الى الغراندوق • وارفقه بتقرير مسهب ، وبكتاب مؤرخ في  
 ٣ تشرين الاول ، اليك تعريه عن الايطالية :

« صاحب السمو مولاي الاوحد •

« مع ان اسفار البحار قد عوقفتني ، وعراقيل غير منتظرة قد فاجأتني واقفة في  
 طريق مهمتي ، واتمام اوامر سموكم ، فتأخرت عن كشف امري للباشا • بيد ان

المولى خولني اخيراً الفرصة للشروع في العمل دون ان افصح حقيقة امري ، فاخذت اسمعى وافاوض وادلي بالبراهين المقنعة . ومازلت حتى اذن لي الوالي في الدخول الى مجلس شوراه السري ، حيث كلفني الافصاح عن رأيي في مصير هذه الامبراطورية المتخبطة في الفوضى والقلقل . فانفسح لي المجال لبلوغ الهدف الساعي اليه ، تاركاً للزمان اتمام المشروع الخطير .

« فالشكر لله لفوزي باكثر ما كنت اعلم النفس به . كما يتسنى لسموك الثابت منه بعد مطالعتك كتاب الباشا وبنود المعاهدة ، والتقرير المسهب الذي يقدمه لك حامل هذه الاسطر . وانا واثق انك ستترتاح الى ما تم حتى الان الارتياح كله . فبين يديك الان معاهدة اكبر حلف عُرف في عصرنا هذا . وهي تحت تصرفكم . وقد رغب الي الباشا ، بعد ان يبلغه خبر توقيع سموك على المعاهدة ، ان اقصد بنفسى اليك لاتلقى بصددتها اوامر كم وارشاداتكم ، وافوز بمصادقة سائر الامراء المسيحيين عليها . فارجو بخضوع ان تتنازل لتأييدي في هذه المهمة الخطيرة ، حتى تتم ، كما بدأت تحت رعايتك ، فتتخذ اسمك الشريف .

« حسب اشارتك سعيت لدى الباشا فقبل اشراك شاه العجم في هذا الحلف . فان لم اقصد اليه بنفسى اوفد هو اليه سفيراً يمثله ، مزوداً بكتاب منه ورسالة سموك اليه . وساعلمك بالامر في حينه ، فينضم هذا العاهل بكليته الى هذا الحلف الراعي الى تحطيم هذه الامبراطورية المترعزة . وانا اقيم لدى الباشا نزولاً على رغبته ، وطمعاً في حمله على المضي في هذا المشروع الخطير .

« ولي ملء الامل ان طلبات الباشا ، المدونة في اللائحة المطوية هنا ، والتي وعدته باستجابتها لوثوقي من كرم سموك وحلمك ، لا تعيق السيد هيبيوليت عن العودة اليها لان منتهى ما يتمناه الباشا ان يتكل على شيء راهن ، ليقطع كل علاقته بالدولة العثمانية ويجاهر بالخروج على عدوة الطرفين .

« ولما كان حامل هذه الاسطر مكلفاً ان ينوب عني في بقية الشرح ، انحنى لاثماً اذبال سموك واذبال مولاتي باخلاص واحترام ومحبة • والتم يدي الامير المعظم وسائر اعضاء الاسرة الشريفة ، سائلاً المولى ان يبلغني بعيتي ، لمجد سموك الاعظم وتعزير النصرانية •

عن حلب في ٣ تشرين الاول ١٦٠٧ خادم سموك المخلص الوضيع

ميخائيل قريع (١)

ثانياً : المحالفة مع الامراء الاوربيين — واليك تعريب نص المعاهدة فقلاً عن الايطالية :

الحتم الكبير « الهي بحق نبي وولي ركشات

بايردي علي جمبلاط ١٠١٥ » (٢)

« باسم الله العلي العظيم

« هذا ختم اسرة جامبولات ، السامية الشرف ، وختمنا الخاص نحن علي

جامبولات (٣) امير مملكة سورية وحميها . لان اغلبها خاضع باذن الله لسلاطنتنا •

« ان صاحب السمو ، غراندوق تسكانا ، قد اوفد الينا سفيراً الفارس ميخائيل

قريع من اعيان حلب ، فسلمنا كتاباً منه ارتحنا الى مضمونه الارتياح كله ، لاننا لسنا

فيه رغبة سموه في ان يعقد معنا عهد صداقة كاملة . فنحن نعلم ان رغبتنا في هذه

الصداقة لا تقل عن رغبة سموه .

« ولهذا السبب نتقبل بكل سرور صداقته المتينة ، وانيقن ان يتقبل بدوره صداقتنا

الغير المتزعزعة ، التي نقدمها له مع رباط المحبة الخالدة . آمين ان تفتح هذه الصداقة

(١) مد ٥ و ١٨ •

(٢) تبدأ في ٩ ايار ١٦٠١ •

(٣) Giampula •

للفريقيين باب فوائد جزيلة • لان السيد ميخائيل قريع وعدنا باسم سموه ان يحمل صاحب القبطة البابا بولس الخامس ، نائب الرب على الارض للمسيحيين ، وجمالة ملك اسبانيا وغيرها من امراء النصرانية وملوكها ، على ان يولونا هم ايضاً صداقتهم وينضموا الى هذه المحالفة الرامية الى كسر شوكة الامبراطورية العثمانية ، وتعزيز بيت جنبلط ، وعلى الاخص شخصنا •

« وبلوغ هذه الغاية نعدهم بان نقوم بكل فتح يطلبونه منا ، مهما كان صعب المنال ، ونعاهدكم ان تزحف على اورشليم المدينة المقدسة وان تقا تل كل من يجسر على الوقوف في سبيلنا ، ونبدل الجهد كله للاستيلاء عليها • واثقين من النجا باذن الله . ونعاهدكم ايضاً على مباشرة هذه الحملة حالما يتوصل سمو الغراندوق الى حمل الكرسي الرسولي وملك اسبانيا على توقيع عهد الصداقة والمحالفة معنا ، وتقديم ما يلزم لها من الزخا ر والمؤن ، حسب الشروط التي وضعناها لهذه الغاية •

ثالثاً : فتح القدس — « وترك تدبير هذا الامر لفطنة سمو غراندوق تسكانا ومروءته • ولا يخفى عليه ان الهمة التي نبذلها للقيام بهذه الحملة والتغلب على الصعوبات التي تعترضها ، تزداد على قدر المساعدات التي نلقاها • فنكرر القول انه حالما يعلمنا سموه بقبول العاهلين المذكورين التحالف معنا ، ونسلم صورة اصلية من المعاهدة مهوراً بتوقيعها ، وتصل في الوقت عينه الذخا ر التي طلبناها الى احد مرافق مملكتنا حيث نضع نظاما وافياً لتسليمها ولرسو الاغربة والمراكب التي تقلبها ، نقوم بدورنا بالزحف على اورشليم بدون تاخير ، حتي تبلغ بشائر فتوحاتنا الى بلاد النصرانية باقرب وقت •

« ولكي يثق الامراء المذكورون من جهودنا ومن رغبتنا الخالصة في خضد شوكة هذا العدو القدير ، وان امكن كسرهما ، نعدهم بتخصيص احدى اساكنتنا لاغربتهم ومرآكهم ، حسب الاتفاق الذي نعقدته سابقاً مع سمو الغراندوق ، وان تقدم

لهم جميع التسهيلات والخدمات التي يتطلبونها من هذا الغرض . وبما ان اول حملة نقوم بها ستكون موجهة الى اورشليم المدينة المقدسة ، نعاهدهم على ان نترأسها بشخصنا . واملنا وطيد بالله ان نستولي عليها . ونحن نبدي منذ الان رغبتنا في ان يسكنها بأمان جميع المسيحيين ، ويمارسوا فيها بحرية تامة شعائر ديانتهم الكاثوليكية . وللاغبين من بلاد النصرانية ان يهاجروا اليها الحق في استيطانها . واذا نشب بينهم خلاف يكون مرجعهم القنصل التسكاني او وكيله المقيم في حلب .

« اذا قصد المسيحيون الى المدينة المقدسة ، ليس التسكانيون فحسب ، بل جميع الخاضعين لسلطة صاحب الغبطة البابا بولس الخامس ، سواء جاؤوا لزيارة قبر يسوع المسيح مخلصهم والمهم ، او سائر الاماكن المقدسة ، او لغرض آخر ، يعفون في دخولهم وخروجهم من كل الرسوم والضرائب التي تعودوا ان يؤدوها في عهد الدولة العثمانية التي كانت تملك هذه الاماكن بدون استحقاق ، لان سفير الغراندوق وعدنا باسم سموه ان يعرض علينا بدلاً من هذه الرسوم بمبلغ سنوي ، نتفق عليه مع سموه .

رابعاً : امتيازات تجارية - « وبما ان هذه المحالفة يجب ان تعود بالفائدة على الطرفين ، باطلاق حرية التجارة في الاساكن والمدن الخاضعة لسلطاننا ، حسب اصول المعاملات التجارية ، نأمر ان نلتحق البنود الآتي بيانها بالشروط المدونة اعلاه التي صادقنا عليها واقسمنا بالمحافظة عليها .

« لما كان صاحب السمو غراندوق تسكانا اول من سعى من الامراء الاوروبيين الى صداقتنا ومحالفتنا ، فقد خولنا الامة التسكانية ، وخاصة الفلورنتية ، الحق في تعيين قناصل في مدن مملكتنا ، يرجع اليهم سائر رعايا الدول الداخلة في الحلف ، سواء كان في الشؤون التجارية او غيرها ، كما سيلي شرحه ، الا اذا كان رأي سموه غير ذلك .

« لجميع الرعايا الفلورنتيين والتسكانيين ، الخاضعين لسمو الغراندوق ، الحق بان يدخلوا ، بمرأكبهم أيأاً كان نوعها ، اساكل مملكتنا ، وان يسافروا منها ، وان .

يتجولوا اينما شاؤوا في المدن والاراضي الخاضعة لنا، ويتعاطوا كل اصناف البضائع وانواع التجارة، وان يعقدوا العقود في اسواقنا حسب الاتفاق بينهم وبين تجارنا، وان يبيعوا ويستردوا بأمان. وللأمة الفلورنتية الافضية على غيرها من الامم الخاضعة لسموه.

« لسفراء سموه غير العاديين، الموفدين اليها، ولقناصل الامة الفلورنتية ووكلائهم وتراجتهم وكتبهم، ان يدخلوا جميع الاماكن الواقعة في مملكتنا، وان يخرجوا منها ويسكنوها بطمأنينة، دون ان يجسر احد على ازعاجهم، بل نرغب ان يلاقوا من الجميع الرعاية والمساعدة في جميع احتياجاتهم.

« على جميع الرعايا الخاضعين للملوك والامراء المسيحيين المتحالفين معنا ان يرجعوا الى قنصل الامة الفلورنتية، المقيم في حلب، في كل الخلافات التي قد تنشأ بينهم، سواء كانت لاسباب تجارية او غير تجارية، مدنية ام جنائية. وليس لهم ان يلجأوا الى غير محاكم، افرنجية ام وطنية. والاحكام الصادرة من هذه المحكمة غير قابلة الاستئناف، ومخوطة كامل السلطة التنفيذية.

« مراعاة للصدقة التي ارتبطننا بها مع سمو غراندوق تسكانا، فمنح جميع الفلورنتيين، الذين يتعاطون التجارة في اراضينا، حق شراء البضائع الممنوعة او المهربة، وشحنها على مراكب سموه، او على ابي مركب آخر دون ان يتعارضهم احد. « اذا قبل تجارنا النقود التي يجلبها او يستجلبها الفلورنتيون من بلادهم، فلا يحق لامناء خزنتنا او للذين يضربون العملة العثمانية او الجبلاطية ان يحجزوها بحجة احتكارهم ضرب العملة.

« ولا يجوز ايضاً حجز البضائع الخاصة باعدائنا، اذا كانت مشحونة بالاجر على مراكب سموه او على مراكب الفلورنتيين. هذه هي ارادتنا.

« ولا يجوز ايضاً فرض رسوم اضافية على البضائع التي يجلبها الفلورنتيون الى اساكلنا ومرافئنا، او التي يصدرونها منها، بحجة تخمينها باسعار تزيد عن الاسعار الموضوعه سابقاً على مثل هذه البضائع.

« على جميع التجار الذين يشحنون بضائع على مراكب فلورنتية، او يتاجرون تحت راية سمو الغراندوق، ان يدفعوا رسوم القنصلية الى سفير سموه او الى وكيله، او الى اي موظف يعينه لهذه الغاية .

خامساً: امتيازات مدنية - « اذا ارتكب احد الرعايا الفلورنتيين جريمة القتل او جناية ما، او اختلف مع احد مواطنيه على امر ما، فلسفيهم او لقنصلهم ان يحكم فيها حسب شرائعهم، ولا يحق لاحد من موظفينا التعرض لشؤونهم .

« لا يجوز سجن القناصل الفلورنتيين المعينين في اساكل مملكتنا للسهر على راحة التجار، ولا وضع الاختام على منازلهم. واذا رفعت عليهم دعوى، او طولبوا بمال، فليس للقاضي او الصوباشي او الكخيا او غيرهم من الموظفين العسكريين او المدنيين الحق في ملاحقتهم، بل يُرفع امرهم الى حضرتنا رأساً او الى ديواننا العام.

« نأذن للقناصل الفلورنتيين ولرعاياهم ان يشيدوا لهم كنيسة في حلب، حيث يوافقهم، بعد الاتفاق مع المالك. ونوصي رعايانا بان يسهلوا عليهم اقامة هذه الكنيسة حسب امنيتهم، وتعيين رهبان من ذويهم يتولون خدمتها حسب شرائعهم وطقوس المذهب الكاثوليكي، دون ان يجسر احد على معارضتهم او مضايقتهم. ونرخص ايضاً للفلورنتيين ان يشتروا او ان يستأجروا او يبنوا لهم منازل لسكناهم ومخازن ودكاكين لبضائعهم .

« لما كان سمو الغراندوق قد اظهر لنا صداقة عظيمة، وسعى وراءها بواسطة سفيره، وسبق الجميع في ما عرضه علينا من السعي في تعزيز بيتنا وحمل سائر ملوك النصرانية وامراءها على الارتباط معنا بالصداقة، نرغب ان يكون لسفرائه وقناصله وكلائهم، اذا قصدوا الى قصرنا او الى قصور قاضينا وكاخيتنا وكبار موظفي دولتنا، حق التقدم على غيرهم من سفراء وقناصل الدول المتحالفة معنا المقيمين لدينا، وعلى بقية السفراء او القناصل المقيمين في حلب، الا اذا شاء سمو الغراندوق خلاف ذلك .

« اذا شاء سفير غراندوق تسكنا، او قنصله او وكيله من رعايا الامه

الفلورنتية ، الخروج الى المدينة ليمثل في حضرتنا ، او لاي داعٍ آخر ، او الخروج خارج المدينة لاشغاله ونزهاته ، فله الحق هو ورفيقه من الامة ذاتها ، والحارس الوطني الذي يرافقها ، ان يمتطوا الجياد ، دون ان يعترضهم او يزعمهم احد ( ١ ) .

« للفلورنتيين القادمين بالبضائع على مراكبهم الى اساكل مملكتنا ومرافقتها ملء الحق في دخولها والخروج منها ، والتجول في اراضيها بأمان . واذا قدفتهم العاصفة واحتاجوا الى مساعدة فليمد رعايانا لهم يد المعونة . وليكن لقباطينهم وخدمة مراكبهم الاحترام والرعاية ، وليقدم لهم من مالهم كل ما يحتاجون اليه من زاد وخلافه .

« واذا ارتطم مركبهم بصخر وغرق ، يُعاد اليهم كل ما امكن تخليصه من البضائع والاسباب والاموال . وعلى الحكام وغيرهم من الموظفين ان لا يتعارضوهم بل يساعدهم في احتياجاتهم ، ويحولهم حرية الذهاب والاياب والاقامة بأمان ، الا اذا ارتكبوا ما يشين الآداب العامة .

« ليس للمحافظين والقواد والجنود التابعين لنا ، ولا لاحد من رعايانا ، ان يتعرضوا للتراجمه الفلورنتيين واتباعهم ، القادمين الى بلادنا بجرأاً أو برأاً للبيع والشراء ، اذا سددوا رسوم القنصلية حسب العوائد .

« اذا كان احد الفلورنتيين مثقلاً بدين ، فلا يطلب الدين الا منه او من ضامنه ( ٢ ) . ويشمل هذا الامتياز جميع رعايا سمو الغراندوق . اما مرجعهم فالقنصلية التسكانية .

« اذا توفي احد الفلورنتيين او التسكانيين ، او غيرهم من الواضعين انفسهم تحت لواء تسكانا ، نرغب الى جميع مأمورينا ونأمرهم بان يمتنعوا عن التعرض لاسبابه وامواله ، بل يسلموها الى ورثته طبقاً لوصيته الاخيرة . وان مات بلا وصية فلينقلوها بحضور قنصله ورضاه الى دار احد مواطنيه ، دون ان يتعارضوهم بشيء

( ١ ) لم يكن للمسيحيين الحق في ركوب الخيل .

( ٢ ) كانت الطوائف المسيحية متضامنة مدنياً وجنائياً .



او يتدخلوا في امورهم .

« على الفلورنتيين وقناصلهم وتراجمتهم وجميع التابعين لهم ان يسجلوا عقود البيع والشراء وسائر المعاملات التجارية لدى قاضي العدل . واذا ادعى عليهم احد بدين ما ، فلا ينظر في دعواه الا اذا كان عقد الدين مسجلاً في سجلات محاكمنا . وان جاؤوا بشهود زور لا تُسمع شهادتهم ، بل العمدة فقط على العقود المسجلة امام قضاتنا ، والا رفض الدعوى . وحذار من مخالفة اصول الشرع .

« على الحكام ان يحذروا من المكائد التي تُكاد على الفلورنتيين لتلصق بهم تهمة السب او الشتم ، توصلاً الى مضايقتهم وابتزاز اموالهم . فلا يسمحوا ان يُسوا بسوء ، ولا يكثرثوا للشكاوى التي تقدم عليهم لهذا الغرض .

« اذا كان احد الفلورنتيين مديناً بمال ، او ارتكب جناية وهرب ، لا يُلاحق سوى الذين ضمنوه او شاركوه في الجناية .

« لا يُجبر الفلورنتيون واتباعهم من المشتغلين بالتجارة او الصناعة ، على دفع الضرائب وسائر الرسوم ، سواء كانوا مزوجين او غير مزوجين .

« لا يجسرن احد على معارضة تعيين القناصل الفلورنتيين في اساكنا او استبدالهم بغيرهم او الادعاء بالحلول مكانهم .

« اذا وقع خلاف بين الفلورنتيين وفلسفيو تسكانا او قنصلها الحق في فض هذا الخلاف ، حسب شرائعهم وانظمتهم ، دون ان يتعارضهم احد من مأمورينا .

« ولما كنا قد وافقنا على كل البنود المذكورة اعلاه ، البالغة الثلاثين ، ووافق عليها سفير سمو غراندوق تسكانا الذي ارتاح اليها الارتياح كله ، واكد لنا ارتياح سموه اليها ، فقد رأينا ان نهرها بتوقيعنا ، ونختتمها بخاتمنا الخاص . وسيزيلها ايضاً السيد ميخائيل قريع سفير سموه بتوقيعه وتوقيع كاتم اسراره السيد جرجي كروجر بعد ان شرحت له . وقد وعدنا السفير المذكور ان يقدم لنا نسخة مطابقة لهذا العقد ، مهوره بتوقيع سمو غراندوق تسكانا وخاتمه ، اكراماً لنا وتوثيقاً لعري الصداقة والمحالفة التي ارتبطنا بها معه . »

اما الخاتم السيفوي فقد نقش عليه :

توكلت على الله  
العبد على

وهالك تعريب السطرين المكتوبين بالتركية في ذيل العقد :  
« اننا قابلون بكل ما دُونَ في هذا العقد . فليوثق بعهدنا . خادم الله حاكم  
سورية علي بن احمد بن جانبولاد من سلالة عباس رضي الله عنه . »  
واليك تعريب توقيعي ليونسييني و كروجر نقلاً عن الايطالية :  
« انا هيبوليت ليونسييني كنت حاضراً هذين التوقيعين . »  
« انا جرجي كروجر كنت حاضراً كما اعلاه ( ١ ) . »

## الفصل الثالث

### مهمة ليونسييني

١ - مطالب علي باشا . عاد ليونسييني الى ليفورنو حاملاً عقد المعاهدة ، وكتابي علي باشا والسفير ، ومطالبهما ، واساعة انكسار علي باشا امام الجيش العثماني ، وقد بلغتته وهو في الطريق . فلم يذق الغراندوق خمرة الفوز الذي اصابه سفيره ، صافية . علي ان الاساعة لم تكن بعد حقيقة . وكانت مصحوبة بنياً خروج علي باشا من حلب بعشرين الفاً من جنوده المدربين ، وانضمامه الى ثوار الاناضول . فلا بد للباب العالي ان يحسب لهذه القوى حساباً . فرأى الغراندوق ان يسرع الى انجاده بالاسطول والاسلحة ، عله ينهض من كبوته ، اذا تحققت الاساعة ، او يشتت شمل الجيش العثماني ، ويصبح سيد الموقف اذا كانت كاذبة .

وذهب الغراندوق في آماله الى ابعد من هذا الحد . علل النفس بان يستعين بقسم من جنود علي باشا ، او الامير فخر الدين ، لاعادة الكرة على قبرص ، حيث يتحصن رجاله واسطوله . فيهدد موصلات الدولة العثمانية مع سورية ولبنان ، ويسند القائميين عليها .

واليك تفصيل هذا المشروع نقلاً عن الوثائق التي وقعت في يدينا :  
 أولاً : جواب علي باشا - واولها جواب علي باشا على كتاب الغراندوق .  
 وهو بالتركية نسخه لنا صديقنا المستشرق اتوري روسي ( ١ ) ، احد اساتذة المعهد

الشرقي في رومية .

باسم الملك الحق المعين

افتخار الامة المسيحية ومختار الملة العيسوية حضرت كراندو كه داتوشكانه  
اهداه الله الى طريق الصواب حضور مستوجب السرور لربنه دعوات صافيات  
وتكريمات وافيات اتخافند نصره مخلصانه انها اولنور كه حالا وارد اولان  
نامه ناميكزده تحرير اولنان محبت و مودت و تسطير اولنان اشارات بالجملة مفهوم  
اولنوب خصوص مزبوره مشعر مفصل مكتوب و داد بوندن اسبق بو بابده وسيله  
اولان فضلي ايله ارسال اولنمش ايدي و حالا اول قوله ثابت قدم بيلوب ان  
شا الله الاعز والرحمان تخلف بوقدر وجانبكز دن كلاجك باليوز ( ١ ) ، كلد كد  
نصره مزبور فضلي قريع كه فرنكجه كوالير ميكيل ( ٢ ) انجلو كوندريلوب  
بابا واسبانيا جانبربنه وارول معرفتكز ايله عهد لشوب عودت ايليه وبو جانبده  
هرنه مصالكو و ارايسه اشارت اولنه كه جان وباش ايله ادا سنه سعي  
اولنور باقي الدعاء .

تحريرا في عاشر يوم شهر جمادي الاخر من شهر سنة ستة عشر و الف .

علي ابن احمد ( ٣ )

وهاك الان تعريبه ، متوخين على قدر الامكان استعمال الالفاظ والتعابير  
الواردة في نصه التركي . وقد وجدنا له في الورقة ٧٣ من السجل عينه ترجمة  
ايطالية ، وضعها على الارجح ميخائيل قريع ، ليوفقها بعقد المعاهدة وهي توافق  
تعريبتنا معنى ، وتختلف عنه مبنى :

( ١ ) بدلاً من « باليوس » .

( ٢ ) سقطت كلمة « در » .

( ٣ ) M.5 f 74 .

« باسم الملك الحق المعين

« افتخار الامة المسيحية ومختار الملة العيسوية ، حضرة غراندوق تسكانا هداه

الله الى طريق الصواب

« بعد تقديم دعوات صافيات وتكريمات وافيات (١) ، طالعنا ما ضمنته كتابكم من عبارات المحبة والاتحاد ، وما اشترتم اليه في فجواه اصبح قرين الافهام . كنا ارسلنا اليكم بواسطة فظلي ( ٢ ) كتاباً وفيما فيه الشرح بهذا الخصوص ( ٣ ) . ونكرر القول هنا اننا ثابتون على العهد ، وان شاء الله لا نغير . حالما يصل الينا السفير الذي توفدونه ، نعيد اليكم فظاً لي قوريع الذي تسونونه بالفرنجية « ميكالانجلو » حتى اذا عقد العهود مع البابا ومع ملك اسبانيا قفل راجعاً الينا . « مهما كان لكم من الاغراض في هذه الجهات ، افيدونا عنه . فنبدل الجهد كله في تلبيتكم .

حرر ١٠ جمادى الثاني سنة ١٠١٦ ( ٤ ) .

علي بن احمد (٥)

ثانياً : هدايا الباشا - وطوى السفير كتابه علي لائحة من الهدايا التي وعد بها علي باشا ، وعلى لائحة اخرى باغراض طلبها لنفسه ولرفقائه . وهالك بيان اللائحة الاولى :  
« خمس قطع من مدفعية الميدان ،  
« الف قصبه بندقية ، طول الواحدة خمسة اشبار ، حسب الرسم الذي يحمله ليونسيني ،  
« مئة سترة حسب الشكل الدارج حالاً ،  
« ثمانية اعمدة من الرخام الابيض والمشبّه ، طبقاً للرسم المرسل مع ليونسيني ،

(١) وردت هذه الديباجة بالعربية في الاصل التركي ، فاثبتناها حرفياً .

(٢) مخائيل قريع ، كما سبق القول .

(٣) لم نعتز عليه .

(٤) ٢ تشرين الاول ١٦٠٧ .

(٥) مد ٥ و ٧٤ .

- اربعة منها تستخدم لقاعدة سبيل ماء ،  
 « تمثال اسد من الرخام الابيض واضع يديه على رأس ثور ، بينما رجلاه  
 تتحفزان للوثوب ، وقد فغر فاه لقتف المياه ،  
 « حلتان من المخمل المطرز الفاخر ، واحدة للباشا والثانية لزوجته ،  
 « برميل جينة صغير من نوع مرسولينو ( ١ ) ،  
 « بستانجي ، ومدفعي ،  
 « اربعة اثواب من الخمل للكخيا ، لان تدبير امور الدولة راجع اليه ،  
 « ست غدارات مطعمة بالذهب ، من صنع هنغاريا ، طول الواحدة شهر وثمانها  
 ريال هنغاري ،  
 « بندقيتان بلولب ،  
 « ثوب حرير ليوزع على خمسة او ستة من كبار الضباط ،  
 ثالثاً : مطالب السفير ورفقائه :  
 « رزمة ورق للكتابة من مصنع ليون ،  
 « قونة من ذهب عليها رسم الفرانديك ، مع سلسلتها الذهبية ،  
 « سيف وخنجر من الصنف الفاخر . وان لم يرغب سموه في اهدائها فليبتاعها  
 ليونسيني لحساب السفير ،  
 « قبعة بالشكل الذي يستحسنه سموه ،  
 « ثوب قماش فاخر لاجل كبوت ، وكسات ، وغير ذلك من لبس ذلك العصر ،  
 « لحم خنزير مقدد ،  
 « برميل نييد ،  
 « برميل سردين ،  
 « جبن ،  
 « لعبة ( عروس ) لولد صغير ،

« فرشة للشباب .

وطلب ليونسييني وكروجر قطعة قماش لتفصيل كسوتين لائقين (١) .

٢- مشروع احتلال قبرص . بالرغم من فشل اسطول الغراندوق في

الحملة التي جهزها على قبرص، وفشل علي باشا في الصمود امام الحملة العثمانية البرية ، لم يفقد فرناندو الامل في احتلال هذه الجزيرة لاهمية مركزها في مشروع فتوحاته الشرقية . فكلف ليونسييني ان يقدم تقريراً يوضح فيه الخطة التي يحسن اتخاذها للوصول الى هذا الغرض بمساعدة علي باشا او حليفه فخر الدين . وهاك تعريب هذا التقرير :

اولاً : الاسلحة - « حال وصول الاسطول التسكاني الى الاسكندرونة، ينزل ليونسييني البر ويقصد توأ الى القنصل الفرنسي صديقه، ويوفد بواسطته رسولا الى الباشا والسفير يعلمهما بوصول مراكب الغراندوق حاملة الاسلحة التي طلبها منه ، ليدبر الباشا من يتسلمها ويوصلها اليه . وعلى قائد الاسطول ورجاله ان ينتظروا التعليمات التي تردهما من الباشا والسفير ويلبوا منها ما استطاعوا اليه سبيلاً .

« ولما كانت قد سرت في اوروبا اشاعة تراجع علي باشا امام مراد باشا الوزير العثماني، وهربه بعشرين الفاً من رجاله، فعلى ليونسييني ان يبلغه ان سمو الغراندوق، حالما سمع بهذا النبأ، اسرع الى ارسال الاسطول بالاسلحة التي طلبها ، ليظهر له ما يمكنه نحوه من المحبة الخاصة .

ثانياً : كيفية الاحتلال - « لما كان سموه لا يريد ان تذهب رحلة اسطوله الى الشرق سدى، قد كلف ليونسييني ان يبلغ الباشا رغبته في احتلال جزيرة قبرص لسببين :

« اولها ليضعف قوى السلطان بجرمانه هذه الجزيرة التي كانت ملكاً للمسيحيين، وتخليص سكانها النصرارى من نيره . والثاني ليتمكن من اتخاذ قاعدة للدفاع عن الباشا حليفه ، لانه ينوي ان يترك فيها اسطولاً قوياً في وسعه ان يرد هجمات

الاتراك عن سعادته وعرقلة موصلاتهم ، اذا عنّ لهم مضايقته .  
 « فيترتب على السفير ان يقنع بفطنته الباشا ليمد سموه باربعة او خمسة آلاف  
 محارب ، لقاء مكافأة مالية يتفق معه عليها ، تسلم اليه حالما يتم تجهيز رجاله لنزول  
 مراكب سموه . على ان يعين عليهم قائداً من اخصائه ، ويمونهم بما يلزم من الزاد  
 في سفر البحر .

« فلينزول الملاحه وليمعنوا فيها نهباً وتخريباً ، وليواصلوا الزحف حتى نيقوسيا .  
 وهي واقعة لا محالة بين ايديهم لخلوها من حامية وتحصين . وليقبلوا في صفوفهم كل  
 المسيحيين الوطنيين الراغبين في الانضمام الى هذه الحملة ، من اروام وغيرهم ،  
 وليتركوا لهم ما تصل اليه ايديهم من الغنائم .

« واذاتم لهم الاستيلاء على فاماغوستا ، انسحبوا من الجزيرة وعادوا الى  
 المراكب ، حاملين ما غنموه في نيقوسيا ، بعد ان يعطوا المسيحيين الذين رافقوهم  
 حصتهم منه . والافوق ان يتمتعوا عن نهب فاماغوستا . ولدى وصولهم الى  
 الاسكندرونة يجدون مندوباً من سموه مكلفاً توزيع المكافآت على كل من القواد  
 والضباط والرجال الذين اشتركوا في هذه الحملة ، وشكرهم على مروءتهم .

ثالثاً : المكافآت - « حالما يتم الاستيلاء على قبرص ، على السفير ان يقصد الى  
 الاسكندرونة حيث يجد مراكب سموه بانتظاره لتقله الى تلك الجزيرة . وعند  
 وصوله اليها يجرى له استقبال فخيم بصفة كونه نائب ملك تسكانا وقبرص . ولينتظر  
 هناك حتى وصول امير تسكانا ، ليتوّج عليها ملكاً باسم والده . ويُرقى ميخائيل  
 قريع الى رتبة فارس ، ويُعطى له لقب مقدم ( ١ ) اكبر مقاطعة من تلك الجزيرة  
 براتب ... ( ٢ ) . ويُمنح ايضاً السيد كروجر ، كاتب امراة ، لقب فارس ، وراثباً  
 يسمح له بان يعيش في مجبوحة . اما ليونسيني ( كاتب هذه السطور ) فيترك امر  
 مكافآته لرأي سموه . ويُعيّن للباشا المبلغ الذي يقع الاتفاق عليه مع السفير ،

(١) Priore .

(٢) النقطة ، في الاصل ، تدل على ان المبلغ لم يعيّن بعد .



يُقدّم له سنوياً ما دام حياً ، ومن بعده لورثائه .

رابعاً : مصلحة الباشا في المشروع - ثم يسرد التقرير ، بين الاسباب التي تدعو الباشا الى مساعدة الغراندوق في حملته ، ان البنادقة يسعون الان للاتفاق مع الباب العالي على استعادة هذه الجزيرة . « فان فازوا بأمنيّتهم اتفقوا مع الاتراك على الباشا ، وحرّموه الفوائد المالية والسياسية التي ينتظر اجتناءها من مخالفة الغراندوق ، لان على مراكب سموّه ان تمر بهذه الجزيرة في طريقها الى سورية ، وينقطع اهل الباشا من التوسع في سورية واحتلال القدس والقطر المصري ، كما صرح سعادته للوفد . واذا اعتذر الباشا ان ليس لديه قائد كفؤ لهذه المهمة ، فلاسفير مخائيل قريع في بغداد شقيق يشبه الباشا شبيهاً غريباً في هيئته وحركاته . وهو ذو بأس وحنكة في الحروب . فان بعث اليه السفير بوفد يستدعيه لا يتأخر بتاتاً عن تلميته . ولما كان وطنياً وشجاعاً لا يمانع الباشا في تقليده هذا المنصب ، ويسير الجنود تحت لوائه بارتياح وحماسة .

« وفي حلب سنجق يُدعى نعمه شلبي ، صديق حميم للباشا ، وقريب السفير ( ١ ) ، فيحسن تكليفه مهمة ما في هذه الحملة ، لان السكان يميلون اليه لبأسه ودماثة اخلاقه ، ويسهل على شقيق السفير ان يتفق واياهم . فان تسلم هذان الشخصان قيادة الحملة ارتاح الباشا الى القيام بها ، وضمن لها النجاح الذي يعود بالفخر عليه وعلى السفير واهله .

« اما اذا كان الباشا لا يريد او لا يقدر على القيام بها فليعرض امرها على الامير فخر الدين ( ٢ ) .

ويشير صاحب التقرير على الغراندوق « ان يحافظ على صداقة بطريك جبيل لبنان ويجيب على كتابه ( ٣ ) .

( ١ ) في الاصل Cugno ، وهو يطلق على اولاد العم والعمة والخال والحالة .

( ٢ ) راجع ما جاء في التقرير بهذا الخصوص في فع ص ١٦٨ .

( ٣ ) مد ٥ و ٩٥ - ١٠١ .

٣- الكتب . وحمل ليونسييني في عودته الى سورية ثلاثة كتب . الاول والثاني من الغراندوق الى سفيره والى الباشا جواباً على كتابيهما السابق نشرهما . والثالث كتاب وجهه الباشا بولس الخامس الى علي باشا .

اولاً : جواب الغراندوق الى السفير - وهاك تعريب الاول :

« وصل الى هنا الفارس هيبوليت ليونسييني دون تباطوء . وسلمنا رسالتك وبقية الوثائق والتقارير . وشرح لنا كل ما تعلق بهذه الشؤون شرحاً وافياً . فتحققنا ان مساعيك الحكيمة بالتعنتنا الهدف . الذي كنا نتوق اليه . فاغتنبنا بهذا النجاح . وقد اوفدنا شخصاً الى رومية ليفتح الجهر الاعظم في هذا المشروع حسبما كتبنا الى سعادة الباشا . وسيطلعك الفارس ليونسييني على الجهود التي قمنا بها في هذا السبيل . وقد اظهر قداسته تمام الاستعداد لمفاوضة ملك اسبانيا في الامر . ونحن نبذل من طرفنا الجهد كله لنثمر هذه المفاوضة الثمرة المرغوب فيها . ونفيدك عن النتيجة في حينها . وغب توقيع المعاهدة ، عليك ان تقصد الينا حاملاً مصادقة سعادتة عليها . ونحن لا نتخلى عن مساعدتك في نفقات السفر . واحملك في بقية ما ترغب الاطلاع عليه الى الفارس ليونسييني الذي زودناه بهذا الخصوص جميع التعليمات الضرورية . ومني لك السلام المقرون بالوداد . اما سائر الاغراض التي طلبتها فتوسل اليك باول فرصة .

عن ليفورنو في ... كانون الثاني ١٦٠٨ (١)

ثانياً : من الغراندوق الى علي باشا - واليك تعريب جواب الغراندوق على كتاب الباشا الاخير :

« ايها السيد السامي الشرف ،

« ان كتابك ، المنبيء عن تمتك بالصحة والانشراح ، قد سرّني السرور كله . فاحمد الله الكلي القدرة على هذه النعمة ، واتمنى لك دوامها .

« رشحت الى اوروبا اشاعة ، حبذا لو ظهر بطلانها ، انك بعد ان تغلبت على

(١) مده و ٤٦ . رقم التاريخ ترك في المسودة على بياض .

مراد باشا الوزير وكتبته خسائر جسيمة في اليوم الاول من اصطدامك به ، لم يتسن لك في اليوم التالي ان تجني ثمرة النصر ، لتفوقه عليك بعدد الرجال . فتركت قلعة حلب ، بعد ان اتقنت تحصينها وتموينها ، ولجأت الى احدى مدن ولايتك ، او الى شاه العجم . فحملني هذا النبأ على الاسراع في ارسال اربعة غلايين من اسطولي الحربي ، حاملة اليك المدافع والبنادق التي طلبتها مني . وهي مسلحة احسن تسليح ، على امل ان تستعيد بها نشاطك ، لانها تلقت الاوامر بمضايقة اعدائك المضايقة كلها ، وتقطع عنهم المدد وال زاد .

« وقد اعدت على هذه المراكب الفارس ليونسيني ، وحملته اليك جوايي هذا ، ليوكد لك اني قد باشرت المساعي في سبيل المشروع . فاوفدت الى رومية سفيراً خاصاً ، خلاف سفيروي المقيم فيها ، ليفتح قداسة الخبر الاعظم بشأن المحالفة التي عرضتها عليك ووافقت عليها ، على يد الفارس مخائيل قريع . وقد بلغني ان قداسته اعارها الاهتمام كله ، وابدى استعداده التام لمفاوضة ملك اسبانيا في سبيلها . وسأبذل من جهتي غاية الجهد لتسير هذه المفاوضات سيراً حثيثاً نحو الغاية . ولي كبير الامل ان تسفر عن النتيجة المطلوبة . فياك ان تفقد شجاعتك ، وتغلب على النجس بثبات الجنان وقوة الارادة . قف غير هباب في وجه الاتراك الظامة ، فاننا على تمام الاستعداد لمؤازرتك .

« ان جواب ملك اسبانيا لا بد ان يتأخر ، لبعده المسافة وخطورة المشروع . بيد اننا لانالو جهداً في ملاحقته . ويسرني ان اعرف انك مرسل عن قريب الفارس مخائيل للمصادقة على ما يتم عليه الاتفاق مع هذين العاهلين ( ١ ) . »

ثالثاً : من بولس الخامس الى علي باشا - وكتب البابا بولس الخامس الى علي باشا ، نزولاً على رغبة الغراندوق ، ما يلي تعريبه عن اللاتينية :

« الى علي باشا جامبولات ، امير مملكة سورية وحاميتها  
« بولس الخامس البابا

« ليحل عليك نور النعمة الالهية ، ايها الرجل الشريف . لقد سمعنا عن المروءة

التي دفعتك ليس فقط الى خلع نير الاتراك ، بل الى اشهار السلاح في وجههم . ولما كانت فطنتك لا تقل عن البسالة التي أبديتها ، فقد عرفت كيف تكتسب عطف الجميع على موقفك هذا الشريف ، فلا تستغرب اذاً ورود هذه الاسطر اليك قبل ان نتلقى منك كتابة ، وقد ضمننا لها سلامنا العاطر عليك ، وشواعر محبتنا لك ، حائزين اياك على مواصلة الاعمال الباهرة التي باشرت بها . وحالما يتسنى لنا ان نمد لك يد المساعدة ، فعلناه بغاية الارتياح . وسننتهز اول فرصة تتاح لنا لاتمام امنيتنا هذه . نسأل المولى المتعال ان يبلغ مزاياك الى محجة الكمال ، وان يبعث الى ذهنك بنور الحقيقة ، ويسهل لك دائماً التقدم في السبيل الشريف الذي اتخذته تمجيداً لاسم الله الاعظم وتخليداً لاسمك .

« اعطي في رومية بقرب مار بطرس ، تحت خاتم الصياد ، في اول شباط السنة ١٦٠٨ ، وهي الثالثة لخبريتنا ( ١ ) » .

٤ - **التعليمات السرية** . وسلم الفرانديك الى ليونسيني تعليمات سرية ليمتقيد به

هو والسفير وقائد الاسطول . واليك تعريبها :

« بعثة هيبوليت ليونسيني . اول شباط ١٦٠٨ .

« التعليمات الصادرة اليك ، ايها الفارس ليونسيني ، في اول شباط ١٦٠٨ .

« عد على المراكب القاصدة الى الشرق الادنى لتبلغ الباشا جواينا ، حسب

فجوى الرسالة التي تحملها اليه . على ان تضيف اليها ما يلي :

« لما بلغت الى بلاد النصرانية بواسطتك اشاعة تراجع الباشا امام القوات

العثمانية ، الامر الذي نأمل ان لا يكون صحيحاً ، حر كنا حيننا له على تجهيز اربعة

غلايين ، تلتحق بالثلاثة التي يقودها الفارس جواداني ( ٢ ) ، خادمنا العزيز ، لكي

تجوب تلك السواحل وتشد ازره في اعماله الحربية ، ورفعاً لشأنه تجاه اعدائه ،

ومحافظة على سمعته وكرامته . وقد امرنا قائد الاسطول ان يبذل الجهود في عرقلة

( ١ ) مد ٥ و ١٣٣ .

( ٢ ) Guadagnie .

وصول المدد والزراد الى اعدائه ، طبقاً للتعليمات التي يتلقاها من سعاداته .

« وبيّن له كمية المدافع والبنادق التي ارسلناها اليه مع هذه الغلايين ، ليعيّن المكان الذي تنزلها فيه ، وطريقة تسلمها ، فيتسنى له استخدامها في اغراضه . وقد اسرعنا بارسال هذه الاعددة وسلّمنا الغلايين على عجلة دون انتظار النتيجة التي تسفر عنها المفاوضات مع الحبر الاعظم الذي الفيناها بغاية الاستعداد لابرام المعاهدة ، ومفاتيح ملك اسبانيا في شأنها .

« واقصد الى باشا حلب والى ميخائيل قريع ، ونبه هذا الاخير على انفراد ان امثال هذه المفاوضات يجب ان تبقى سرّاً لا يطلع عليه سواكنا . ثم اشرح للباشا ، بحضور السفير ، التعليمات التي تبيّنتها بالطريقة التي خبرتها . وأكد له اننا لا نتوخي ، من الحاحنا عليه بالثبات في موقفه العدائي ضد الاتراك ، سوى مصلحته وتوفيقه ورفعته ، الامر الذي يتحققه بما قمنا به حتى الان في سبيله ، دون ان ننتظر ما يستقر عليه البابا وملك اسبانيا ، لان قرارهما قد يستغرق وقتاً طويلاً .

« ومع اننا نتولى بنعمة الله بلاداً واسعة ، ونملك قوات عظيمة ، لا يسعنا ان نقدم له من المساعدة ما في مقدرة الحبر الاعظم وملك اسبانيا تقديمه . فعليه ان يفصح عن مطالبه من هذين العاهلين ، لنبلّغها اليهما في اثناء مفاوضاتنا معها بشأن المحالفة . فنحن نقوم لمصلحته بما استطعنا اليه سبيلاً ، غير اننا لا نقوى على تحمل العبء كله وحدنا .

« ونكرر القول ان قداسة الحبر الاعظم قد اظهر من الاستعداد لمفاوضة ملك اسبانيا ما جعلنا نعلل النفس بأهمية المساعدات التي تعدّ لسعاداته . بيد اننا لانستطيع ان نقطع له بها عهداً . فان اظهر الشجاعة والثبات في موقفه العدائي ضد الاتراك ، حمل البابا وملك اسبانيا على عقد المعاهدة معه وبسط حمايتها عليه .

« وبلّغه انه لو تم لنا فتح فاماغوستا، وتثبيت اقدامنا في الجزيرة ، لاسرعنا الى الاتصال به ومدّ يد المساعدة اليه ، حتى يتمكن بدوره من تثبيت اقدامه في مملكته ، ويسهل علينا شدّ ازره في مشاريعه وفتوحاته ضد الاتراك ، وحمل البابا

وملك اسبانيا والنصرانية اجمع على مساعدته في تعزيز شأنه وضمّان مستقبله .  
 « وقد علمنا منك ومن سفيرنا انه أسف لفشلنا في الحملة على قبرص . فنريد ان  
 تعبّر له عن شكرنا له على هذه العاطفة النبيلة ، وان تؤكّد له اننا نبادله اياها بكل  
 جوارحنا . واحفظ ما يقوله لك في هذا الصدد . واجتهد ان تستكشف مملكته  
 وقواته لتعرف الى اي مدى يمكننا ان نستفيد من مخالفته عند الحاجة ، دون ان  
 تدخل معه في التفاصيل .

« ولا يستغربن احجامنا حتى الان عن ارسال مراقبنا وتجارنا الى ثغوره  
 وبلاده . فهؤلاء التجار لا يسعهم ان يجازفوا باموالهم ، في اثناء الحروب والقلاقل  
 التي تتخبط بها بلاده الان ، لاسيا بعد ان بلغتهم اشاعة انكساره . بيد انهم اذا  
 وثقوا من خمود هذه الاضطرابات ، ومن تقدّم المفاوضات في سبيل المعاهدة التي  
 وضع سعادته أسسها ، فتحووا باب هذه المتاجرة على مصراعيه ، بعد ترتيب البنود  
 التي تلزم لحسن سيرها ، والتي اشار اليها سعادته في الوثيقة المرسلة اليها .

« واعتذر له اننا لم نتمكن من ارسال بقية الاغراض التي طلبها منا لبعدها عن  
 المدن التي تصنع فيها . أما الاسلحة التي شحنّاها اليه فقد كنا اودعناها مخازننا في  
 بيزا وليفورنو . بيد اننا نعهده بارسالها في اول فرصة .

« وقبل ان تقصد انت والسفير الى علي باشا تشافها مع الفارس جواداني ،  
 واطلعه على هذه التعليمات ، وخذا رأيه في الخطة التي يحسن السير عليها ، طبقاً  
 للاخبار التي تردكم عن حالة الباشا . فان فقدم الامل من نهوضه ، امتنعتم عن  
 الذهاب اليه وتسليمه الاسلحة . وان وجدتموه بحالة تمكنه من الانتعاش والثبات ،  
 وانه يرجى من قيامه كسر شوكة الاتراك وعقد مخالفة مع امراء النصرانية ،  
 قصدتم اليه ( ١ ) .

« على كل حال نريد ان تزوروا باسمنا الامير فخر الدين ... ( ٢ ) .

( ١ ) مد ٥ و ٢٥ ، ٣٦ .

( ٢ ) نشرنا ما يخص فخر الدين من هذه الوثيقة في فع ١٦٨ ، ١٦٩ .

## الفصل الرابع

### النكبة

بينما كان الحلفاء الثلاثة ، علي باشا جمبلاط وفخر الدين المعني وفرناندو الاول غراندوق تسكانا، يمتنون النفس بالاستقلال والتبسط والبجوحة على حساب الامبراطورية العثمانية المتقلقة، اذا بالسعد يخدمها، فضربت والى حلب ضربة قاضية واستعادت هيبتها في سورية والاناضول ولبنان . فتهيبها فخر الدين وسائر العصاة، وتظاهروا بالطاعة ، واخلدوا الى السكينة . وحوّل الغراندوق شطر وجهه عن علي باشا الى حليفه الامير فخر الدين ، وارتبط معه بعلاقات ورثها عنه ولده قزما الثاني وحفيده فردناندو الثاني . واليك الآن كلمة عن أفول نجم علي باشا .

١ - نكبة علي باشا . لدينا عن هذه النكبة التي نزلت به وبحلب مدينته وثائق : أهمها تقرير وافٍ بالغرض وضعه ميخائيل قريع وارسله الى الغراندوق قبيل سفره الى العجم ، وآخر وجهه جرجي كروجر كاتب اسراره الى رفيقه ليونسيني .

وكان هذا قدر كب البحر في الخامس من شباط ١٦٠٨ (١)، عائدآ الى الشرق، مزودآ بالتعليمات والرسائل التي نشرناها، وبكتب توصية الى جواداني قائد الاسطول التسكاني الذي كان ينتظره في قبرص ، والى برتلماوس مونتر الهولندي ، وكيل الغراندوق السري في هذه الجزيرة ، والى قنصلي فرنسا في طرابلس

## والاسكندرونة ( ١ ) .

وبعد ان بارح تسكانا تلقى الفرانديوق اخباراً تحقق منها كسرة علي باشا ، فقد وصل الى تسكانا رجل ايطالي ترك حلب في اول كانون الاول ١٦٠٧ ، فادلى بما رآه وسمعه ( ٢ ) . وتسلم الفرانديوق كتاباً من الاستانة مؤرخاً في التاسع من الشهر عينه ، يصف الاحتفالات التي امر السلطان باقامتها في هذه العاصمة ، ابتهاجاً بنصرة جيشه على جمبلاط باشا ( ٣ ) .

بيد ان تقرير ميخائيل قريع ، الحامل تاريخ ٦ كانون الاول ١٦٠٧ ، لم يُبق له مجالاً للشك ، وجاء وافياً خطيراً . وقد كتب كثير من فقراته بالارقام ، وجدناها مفسرة بين الاسطر . فاليك تعريبه عن الايطالية .

اولاً : خروج علي باشا للقاء العدو - استهل تقريره بقوله : « لاشك ن سعادتك قد شعرت بالارتياح لدى وقوفك على كتاب الباشا اليك ، وعلى بنود المعاهدة التي فزت بها منه ، فضلاً عن عريضي الاخيرة ، وعن التقرير المستوفي الشرح الذي قدمه لسموك هيبوليت ليونسيني . فرأيت كيف اني ، بنعمة الله وأيده ، قمت بمهمتي احسن قيام ، ووضعت اساسات ذلك الصرح العظيم . »  
« وفي السادس من تشرين الاول ، بعيد خروج ليونسيني من حلب ، بلغنا ان الوزير وصل الى أدنه وعلى أهبة السفر الى باياس . فارتأى الباشا ان الوقت قد حان للقاء الجيش العثماني ، وصادر امره الى عساكره بان ينظموا صفوفهم ويدبروا امورهم . واخذ هو بدوره يتأهب للخروج . ولما سمع السكان بامر الرحيل عمدوا كعادتهم الى الدوران في المدينة والتعدي على كل من يلتقون به . فأقفلت جميع الدكاكين ، وانزوى كل انسان في بيته . بيد ان هذا لم يمنع السكان من الرجوع الى عوائدهم القبيحة ، فاخذوا يقتحمون الدكاكين والمنازل ، ويمعنون فيها نهباً .

(١) مد ٥ و ٣٩ ، ٤٣ ، ٩٢ - ٩٤ .

(٢) مد ٥ و ١٣٠ ، ١٣١ .

(٣) مد ٥ و ٤٩١ ، ٤٩٢ .



ولما سمع الباشا بهذه القلائل امر قائد السكمان وعمه حيدر بك وغيرهما من القواد بان يجوبوا المدينة مسلحين ، ويوقفوا هذه الشرور . فنزلوا عند اوامره ، وانزلوا العقاب الشديد بكثير من العساكر .

« وبعد ان سافر القواد عاد السكمان الى اشنع ما كانوا عليه ، حتى اضطر الباشا ان يخرج اليهم بنفسه ، ويقتص من كل من وجده يرتكب هذه التعديات . وقد قطع رأس اثنين منهم بيده . ودامت هذه الفوضى ستة ايام متواليه ، حصر في اثنائها كل امرىء منا همهم في منع التعدي عنه والتحصن في بيته والتزامه . وبعد ان رتب الباشا اشغاله وترك لكاخيمته ولبقية الموظفين الاوامر اللازمة ، خرج في الثاني عشر من تشرين الاول بثلاثين الف جندي مدرّب على الحرب . فاستراحت المدينة من شر هؤلاء الوحوش الضارية ، وانصرف الكاخية الى تجهيز القلعة وتموينها بكل ما رآه لازماً للدفاع عنها وتحمل الحصار ، مها بلغت شدته ومدته . غير انه لم يبلغ منتهى امنيته . فقد كان ينقصه الالم ، كما سيأتي الكلام (١) .

ثانياً: الكسرة - « وفي هذه الغضون كانت اخبار تتوارد متناقضة ، تارة سارة وطوراً محزنة ، حسب الاشخاص الذين كانوا يتلفونها . انبأتنا مرة ان الباشا ذهب ليخضع للوزير ، واخرى انه تغلب عليه . ومن قائل انه قصد الى فتح دمشق ، ومن آخر قال خلاف ذلك . فكانت الاخبار تتزاحم وتتناقض اكثر من جرائد البندقية . وهي اقرب الى الكذب منها الى الحقيقة . حتى اذا جاء اليوم الرابع والعشرون علمنا ان في الثاني والعشرين منه ، لما رأى جنود الباشا انهم اصبحوا على مقربة من الجيش العثماني ، عزموا على منازلته بالرغم من ارادة سيدهم . فقصدوا اليه بنظام . ولما لم يكن بانتظارهم انهزم مرتين ، وتكبده خسائر جسيمة ، مع تفوقه عليهم بالعدد .

« ولما منى العدو بهذا الاندحار انسحب الى قمة هناك ، كانت قد اخفى فيها مدافعه ، مستدرجاً جنود الباشا ، حتى اذا اقترب من مدفعيته ، انشطر شطرين

(١) يعني المدافع .

واطلق عليهم نيران المدافع ، فذعروا . ولما لم يعودوا يبصرون العدو لكثافة الدخان ، عادوا ادراجهم . فاعمل العدو في اقفيتهم وهزمهم جميعاً . فمن كان لديه حصان نجا بنفسه هرباً ، والباقون سقطوا في حومة الوغى . فقتل من الرجال ثمانية الاف ، وخسر العدو في الموقعتين السابقتين عدداً لا يقل عن هذا . وقعت هذه المعركة يوم الاثنين ، على بعد يومين من حلب ، وراء كاسس ، بالقرب من مكان يدعى « العمق » ( ١ ) .

ثالثاً : نهب المدينة - « وفي اليوم الذي تلقينا فيه هذا النبأ ، وصل علي باشا ودخل المدينة بقسم من عساكره ، ليدبر اموره وامواله ويهرب . وفي اليوم التالي وصلت بقية العساكر ، وكانت المدينة قد اقلت ابوابها في وجوههم فلم يتمكنوا من دخولها ، بل عمدوا الى المنازل الواقعة خارجاً عنها واخذوا في نهبها . فتحصن كل في بيته وسد بابه بالحجارة ، ودافع عن نفسه بما لديه من الاسلحة . ومن لم يملك سلاحاً استخدم الحجارة . فقتل من المهاجمين عدد يذكر ، وقتل السكان

( ١ ) قال المحبي ( ٣ : ١٣٩ ) : « وخرج الوزير من الاستانة ومعه من العساكر الرومية ما يزيد عن ثلاثمائة الف بين فارس وراجل ... ولما تلاقى الفريقان برز عسكر ابن جانبولاد الى المقاتلة يومين ولم يظهر لاحدى الفتيين غلبة على الاخرى . ففي اليوم الثالث التحم القتال حتى كاد ان يكون عسكر البغاة غالباً . وكان من اعاجيب الامر ان وزيراً يقال له حسن باشا الترياقى وكان في جملة المعسكر السلطاني رتب عسكر السلطان وقال قاتلوا البغاة الى وقت الظهر . فاذا حكم وقت الظهر فافترقوا فرقتين فرقة منكم تذهب لجانب اليمين واخرى تذهب لجهة الشمال واجعلوا عرصه القتال خالية للاعداء وحدهم . وقد اخفى المدافع الكبيرة في مقابلة العدو وملاها بالبارود . فلما تفرق عسكر السلطان ظن حزب ابن جانبولاد انهم كسروه فبالغوا في اتباع عسكر السلطان الى ان كادوا يخاطونهم . فلما قربوا وخلت لهم عرصه القتال اطلقوا عليهم المدافع ولحقوهم بالسيوف الى ان ازاحوهم عن خيامهم وكسروهم كسرة شنيعة وقتلوا منهم خلقاً كثيراً . »

بعض النساء والرجال . وكان بالقرب منا ، في حي اليهود ، منزل لم يتمكنوا من دخوله فاحرقوه بكل ما فيه . وكانوا اذا اقتحموا البيت نهبوه عن بكرة ابيه ، وعروا سكانه وضربوهم ضرباً مبرحاً ليدلوهم على مخبأ نقودهم . واحياناً كانوا يوثقونهم ويقودونهم الى السوق حيث يبيعونهم بيع السلع .

« هذا ما ارتكبه الجنود الذين ظلوا خارج المدينة . اما الذين دخلوها ففاقوهم فظاعة . حطموا ابواب الدكاكين واقتحموا كثيراً من المنازل ، ونهبوها . دامت هذه الحال طيلة النهار والليل حتى ظهر اليوم التالي الى ان رتب الباشا اموره كلها وكلف قائده جمعه بك حماية القلعة بعد ان وضع فيها حامية مؤلفة من خمسمائة سكراني ، وخرج مع العساكر الذين اتوا بمعيته قاصداً الى عينتاب . فنجت المدينة من هؤلاء الضواري .

رابعاً : الانتقام من السكمان - « وما ان خرج الباشا حتى تألب الاهالي على السكان المتأخرين ، وكانوا يرمونهم بالحجارة ، فجرحوا كثيراً منهم جروحاً بالغة . ونال حيدر بك ، عم الباشا ، حصته . ولو لم يهرول هارباً لرحمته وقتلوه بلا محالة . بيد ان جواده الاصيل خلس حياته من موت محتم . وفي الايام التالية كان الاتراك يخرجون الى المدينة ، وكل من وجدوه من السكمان صرعوه بلا رحمة ، وشربوا دمه . ونزعوا من كثيرين قلوبهم واكبادهم وشووها واكلوها تشفياً . وقطعوا من بعضهم المرارة وعلقوها في منازلهم عبوة وذكري . اما جثثهم فكانوا يلقونها الى الكلاب فتنهشها وتلتهمها . وتزيتا بعض السكمان بازياء الافرنج او اليهود او النساء محاولين الهرب . بيد انهم عرفوهم واماتوهم شرمية . »

٢ - مراد باشا في حلب . وتابع قريع تقريرة سارداً ما شاهده في حلب بعد

احتلالها ، وما عرفه عن مصير علي باشا بعد خروجه منها ، فقال :

اولاً : احتلال حلب - « وفي التاسع والعشرين من الشهر عينه وصل الوزير الى مسافة ميلين من حلب وعسكر هناك تحت الخيام . وارسل نائبه ليتولى زمام المدينة . وفي غرة تشرين الثاني دخلها الباشا الذي عينه عليها . وفي اليوم ذاته

دخلها الوزير ليرى اذا كان حماة القلعة ميالين الى تسليمها. وكانوا قد عثروا على بلو كباشيين من عساكر الباشا، مخبئين، فاودوهما الى سكان القلعة بكتب عاهدتهم فيها الوزير ان يعفو عن حياتهم وحياة جميع من معهم، اذا سلموها. ولما لم يجيبوه وطد النية على اخذها بالقوة. وبعد ان اصدر اوامره بهذا الصدد عاد الى مخيمه. فقصد رجاله الى القلعة وانصرفوا الى ردم الخندق وحفر الانغام لنفسها. وفتشوا عن مجرى الماء المناسب اليها ليفسدوه او يقطعوه. وما ان شاهدتهم المحاصرون حتى عمدوا الى المدافع والبنادق فاطلقوها عليهم. حتى خشينا ان يطول امر الحصار.

« بيد ان الوزير اوفد من يوههم بما يعدّه من المعدات الهائلة لفتح القلعة، مع انه لم يكن لديه سوى بضع مدافع. ولما كانوا هم ايضاً بحاجة الى المدافع بانوا يشكثون في النجاح فضلاً عن انهم مطبوعون على الخيانة. ولذلك كلفوا ثاني يوم بلو كباشياً ان يتفق مع الوزير على تسليم القلعة، على ان يؤمنهم على ارواحهم واموالهم، وان لا ينزل بهم اذية البتة. اما الوزير فلعلمه ان فتح القلعة بالقوة يكلفه غالباً، اقسام لهم بما ارادوا، فسلموا في اليوم التالي، ابي في الرابع من تشرين الثاني. وفي السادس منه دخل الوزير القلعة. ولما رآها خالية من المدافع وضع فيها واحداً من المدافع القليلة التي جلبها معه، وأعاد اليها الحامية القديمة التي اخرجها علي باشا، وسلحها. وامر ان يختموا جميع المخازن، حيث اودع علي باشا المؤن وبعض الاسباب، لينجيبها من النهب. وهكذا فعل بسرابه وقصور جميع ذويه، واستخرج بعدئذ منها نفوداً وحلى وجواهر وتحفاً لا يحصر عددها، لاسيما من قصر عمه حسين باشا جمبلاط، حيث عثر على كمية وافرة من الذهب والجواهر والحلي خاصة والدة علي باشا وزوجاته، كان خبأها تحت الارض وبني فوقها.

ثانياً: العصاة في الاناضول - « اما علي باشا فخرج من حلب بعشرة الآف فارس وخمسة الآف راجل، قاصداً الى عينتاب. وحال وصوله اليها نهبها عن

بكرة ابيها ، واستنزف من سكانها اموالاً طائلة . وكان جاويز قادم من الاستانة بكتابات و اوامر سلطانية ، ولما مر من هناك جردوه بما يحمله وارسلوه الى الوزير ، ليبلغه انهم ينتظرونه هناك . فقص عليه ما جرى له واخبره ان جيش الباشا يبلغ عشرين الفاً ، منهم على الخيل ، والباقيون يمتطون الدواب .

« وانتقل علي باشا من عينتاب الى ملاطية ، فدخلها بجيئه ، مزوراً باسم الوزير كتابات واختاماً مفادها انه قادم من طرفه . فصدقه اهلها وقبلوه بطيبة خاطر . وما ان استقر به المقام حتى استدعى وجوها وطلب اليهم ان يحضروا اليه اربعين الف سكوت لدفع رواتب جنوده . وهددهم ، ان ابوا ، بنهب المدينة . فخافوا وقدموا اليه كل نقودهم . وهو الان مقيم هناك مع اربعين الف مقاتل ، على ما يقال .

« وقد جهز الوزير بعد وصوله الى هنا حملتين على العصاة الذين كانوا يلاحقونه من كرامانيا . ولما علم ان كثيراً من السكان لجأوا الى القرى المجاورة لحلب ، امر جنوده ان يقطعوا عليهم الطرق ويقتلوا من وجدوا منهم ، او يقودونه الى هنا . واذ شاهد القرويون المدد حملوا هم ايضاً السلاح ، وقتلوا من السكان عدداً وافراً . وقتل الوزير بدوره جميع الذين ساقوهم اليه . وهم يأتونه يومياً بمن يقع منهم في ايديهم فيصرعهم . حتى يقال ان عدد الذين قتلهم بعد وصوله الى هنا يوارى عدد الذين سقطوا في حومة الوغى . ففي يوم واحد انزل الوزير الى المدينة اثنين واربعين منهم ، قطعوهم ارباباً ارباباً امام اسوار القلعة على مشهد من الجميع ، عبوة لمن تحدته نفسه باسهار السلاح في وجه السلطان .

« اما الحملتان اللتان وجهها على عصاة الاناضول فقد ابادوهما عن آخرهما . وكانت الاولى مؤلفة من عشرين الفاً ، والثانية من اثني عشر الفاً . فاضطر الى تجهيز غيرهما في الاسبوع الماضي ، قيل ان قسماً منهم راكب على العصاة ، والآخر على علي باشا ليزيحه عن ملاطية ، حيث ينوي ان يقضي فصل الشتاء . وسرى اذا كانوا يفلحون . وبكفي القول ان جيش الوزير ، الذي كان يعد سبعين الفاً ، اكثرهم من الرجال الهزيلين الجبناء ، يذوب الان رويداً رويداً . ومقدار كبير من الخيل

والبغال والجمال هلك من الجوع ومن البرد الشديد الذي داهمهم في زحفهم . وما زال يموت منهم يومياً . والجميع يقولون انه لو ثبت الباشا ستة او ثمانية ايام دون ان يجارب لاضطر الوزير ان يعود ادراجه . وان انكسار جيشه عائد الى خلوه من المدافع . فالشجاعة لم تنقصه . ورجال الوزير انفسهم يقرّون ان جيش الباشا قاتل ببسالة جعلهم يشكون في الفوز، بل كانوا يفكرون بالانسحاب والعود من حيث اتوا ، لو لم تخلصهم المدفعية من موقفهم الحرج .»

ثالثاً : الوفود والهدايا — في الحادي عشر من الشهر الجاري وصل الى هنا ابن جفاله الذي كان متولياً دمشق ، ومعه سبعمائة فارس . وفي العشرين منه ارسل الامير شديد ، ملك العرب ، هدية الى الوزير مؤلفة من ستة جياذ اصائل ، وستين جملاً، وثلاثة آلاف خروف نخسي ، وخمسمائة حمل شعير وقمح ، وستة آلاف قرش من النقود . وفي الرابع والعشرين اوفد الامير يوسف ( ١ ) ولده الى الوزير حاملاً الهدايا وزهاء مئة الف سلطاني من النقود .

« وفي اليوم عينه وصل انكشارية الشام الذين التقوا في طريقهم بقول آغاصي من كبار العصاة ، كان الامير فخر الدين ارسله لنجدة علي باشا . غير انه وصل متأخراً فوجد الطرق مسدودة لملاحقة الباشا . ولما عاد ادراجه اصطدم بالدمشقيين قرب حماة ، فسلم اليهم بدون قتال ، هو وخمسمائة سكهاني ، بين فارس وراجل . وجاء الى هنا ليقدم خضوعه هو ورجاله للوزير ، فقابله ببشاشة ، وخلع عليه ووعده بالعفو عما صدر منه . وسئرى كيف يفي بوعدته لهؤلاء السكهان . ويقال ان ما يحمله على التظاهر بالحلم طمعه في القبض على علي باشا رئيس جميع العصاة . فهو لا يقصد غيره . ومتى اصبح في قبضة يده اهلك هذا وذاك . واملي بالله ان ينفق في ما يدبره له .

« وفي السادس منه ورد الى هنا من الاسكندرونة نبأ ظهور قارب في الثغر

(١) سيفا ، والي طرابلس .

يفتش عن غليون انكليزي حمّله الامير فخر الدين هدايا كثيرة ارسلها الى الوزير (١). غير ان الغليون مُفقد ، ولا يدري احد اين توجه . ولما بلغ الامير الخبر قبض على جميع تجار الافرنج في صيدا ، وهددهم بالقتل ان لم يظهروا الغليون . فارسلوا هذا القارب الى الاسكندرونة والى باياس ليتحققوا من وصوله . فلم يجده لا في هذا الثغر ولا في ذلك . واصبح التجار في خطر . وهناك اشاعة مفادها ان الامير مجهز بعض المراكب للهرب الى ايطاليا ، اذا عنّ للوزير ان يركب عليه ، لانه يتحاشى مقاتلته .

« وفي غرة كانون الثاني دخل الوزير المدينة ليقضي فيها فصل الشتاء ، ويُصلح امورها ، لان الجميع يوجسون خوفاً من خروجه وعودة علي باشا اليها بقوات تفوق الاولى ، فيعيث فيها فساداً . ولما شاع اخيراً ان الوزير تلقى امراً من السلطان بالسفر الى هنغاريا ، ذهب اعيان المدينة اليه ورجوه ان لا يتركهم ، لانه لو فعل لعاد علي باشا وامعن فيهم نهياً وقد يقتلهم عن بكرة ابيهم . وكان قصدهم من هذه المواجهة ان يجسوا نبضه ليقفوا على حقيقة مقاصده .

« وشاع ايضاً ان الثوار في جهات بروسه ، القريبة من الاستانة ، عادوا الى ضم صفوفهم ، بعد ان بعد عنهم الوزير ، فاصبحوا اربعين الفاً . وهم يعيثون في تلك الجهات فساداً . ويقال ان في نيتهم الاستيلاء على مدينة بروسه المذكورة . فان فازوا امست الاستانة في خطر كبير .

« لقد تعين ابن جفاله والياً على بغداد ، فارسل في الثامن والعشرين من تشرين الثاني نائبه ليمسألمها . بيد ان البعض يقولون ان واليها القديم يأبى الخروج منها ، وان حاميتها ، المؤلفة من الاسرى ، تفضل الالتحاق بشاه العجم من الخضوع لغير واليها المعزول .

(١) بعث اليه مع ولده علي والحاج كيوان هدايا تقدر بثلاثمائة الف قرش بين حرير ونقود ( فع ، ١٦٩ ) . فاقره الوزير علي ولاياته باهم ولده المذكور . وكان ذلك في رمضان ١٠١٦ ، الذي يبدأ في كانون الاول ١٦٠٧ ( ١٨٧٥ و خ ٦ ) .

« جاء في نبأ وارد من بلاد العجم ان ملكها يستعد للحرب استعداداً عظيماً ،  
فقد بلغه ان السلطان امر وزيره مراد باشا بالزحف عليه ، بعد ان يرتب شؤون  
هذه الجهات .

« عرفت سموك قبلي كيف نجحت حملة بونا في بلاد المغرب ( ١ ) . فالكتب التي  
وردت اخيراً من مرسيليا تنبئ ان البرتون الانكليزي والمركب التركي ، اللذين  
كانا في تلك السواحل ، قد اسرا معاً . فجاءت الغنيمة اوفر مما فازت به مراكب  
سموك في بونا .

٣ - نكبة قريع . « اما ما دهمنا من الاخطار والشدائد في اثناء نهب  
السكمان المدينة مرتين ، منذ وصول الوزير حتى الان ، فلا يسعني شرحه لئلا  
يستولي الملل على سموك . فكأنني اتعرض لوصف دموع النزاع ولوعاته . فترك  
الحكم في ذلك لمن وجد نفسه في مثل هذه الظروف . والحق يقال انها لفرصة سانحة  
تحملنا على تقديم آيات الشكر لله تبارك وتعالى ، الذي نجانا من هذه المحن .  
اولاً : الاستنطاق - « فقد شاع انني جلبت معي للباشا من بلاد النصرانية  
ثلاث بنسقيات ( ٢ ) ، وانني اشرت عليه ان يعيد خشب المدافع المكسرة . واني ،  
بعد خروجه من حلب ، ساعدت قيّمه على تموين القلعة ، وارصيتُ علي ما يلزمها  
من الزاد . واشياء غير هذه طرقت مسامع الوزير . فاستدعاني اليه ، وحقق معي  
عن هذه التهم واحدة فواحدة ، فظهرت له اني لست بشيء ، فأنتس لي ان اقوم  
بكل هذه الاعمال . وبيّنت له اعداري ، ودافعت عن نفسي ما استطعت الى  
الدفاع سبيلاً . وظهرت الدهشة من تجاسر اعدائي على لصق هذه التهمات  
الفضيعة بي ، وبرهنت له انها افتراءات صادرة عن الحسد والحُبث الكامنين في صدور  
هؤلاء اليهود الملاءين . وليس بينهم من يستطيع اثبات ما يدعيه علي .  
وبما ان الوزير يعرفني حق المعرفة ، وكان صديقاً حميماً لوالدي واهلي ، آمن علي

( ١ ) قامت بها مراكب الغراندوق Bona .

( ٢ ) لعله يريد ثلاثة آلاف .



أقواله ، بل عرض عليّ مساعدته ، ونفحني بلقب مهمدار السلطان وبراتب اتقاضاه سنوياً ، وخولني بعض الامتيازات لاسرتي ، واعفاني من رسوم الحرب وغيرها . « بيد ان كل هذه المظاهر كانت خداعاً . وانتهى بي الامر ان احد المقربين اليه عين لي شاويشاً يلزمني . فكان هذا يسائلي ، تحت ستار حجج واهية ، عن سبب مجيئي الى هذه البلاد برفقة رجلين من الافرنج ، عاد احدهما الى بلاد النصرانية ، وبقي الآخر معي . فاجبته بما حضرتني . فلم يقتنع . وقادني موثوقاً الى احد البيوت حيث كان ينتظرني اربعة جنود ، وثقوني وشرعوا يسومونني من العذاب الواناً لابوح بسري . فاحتملت بعون السيد له المجد كل هذه الآلام . ولما رأوا عجزهم عن ان ينزعوا السر من صدري ، وكانوا قد ملّوا من تعذيبي ، تركوني وفرضوا عليّ غرامة خمسمائة قرش . ولما لم اكن املك خمسمائة قرش ولا خمسين ، درت ابحت عن يقرضني هذا المبلغ ، فلم افلح ، بل كان يتبرأ مني كل من اقصد اليه . اخيراً وقعت في السيد تيموتاوس مويان (١) الفرنسوي ، الرجل الشريف المحبوب من الجميع . هذا لما علم بمصيبي اشفق عليّ وقدم لي المبلغ . فنجوت بكرامتي وحياتي واهل بيتي . ولولاه لانتابني شدايد لا تقاس خطورة بما سبقها . فاصبحت مديناً له بكل حياتي .

ثانياً : السفر الى العجم - « ولما خبرته صديقاً مخلصاً كريم النفس ، بحت له بسر مجيئي الى هذه البلاد التعسة ، ولحّت له بلباقة عن مقاصدي ، لأنجو نهائياً ، قبل ان ينفذ امره ، من الاخطار التي تنتظرني ، واتوجه الى بلاد فارس لاتمام مهمتي لدى ذلك العاهل ، لاسيما وان القافلة التي كانت عازمة على السفر منذ ثلاثة اشهر توقفت للحروب الناشبة هنا . وتوصية سموك ما زالت معي . لذلك عقدت النية على التوجه الى تلك البلاد ان شاء الله ، احرى من ذهابي الى الامير فيخر الدين او الى غيره ، لانه ما زال هو وبعض الاشخاص في كفة الميزان ، لا يدري علي اي شيء يعتمد .

Moyen (١)

« وما شدد عزمي على السفر الى تلك الجهات ان علي باشا كتب سرّاً الى يزيك العجمي ، احد امنائه في هذه المدينة ، يظهر رغبته في ان اقصد باقرب وقت الى الشاه وافاتحه بما دار عليه الحديث بيننا مراراً ، واثق بينهما عرى الصداقة والمخالفة . فاما ان ينجده بالرجال ، او على الاقل يهاجم الاتراك من جهته بكل قواته . وهو من جانبه يفعل ما يستطيع اليه سبيلاً . فقد أقسم بالثأر ولو كلفه حياته . وألح في الكتاب عليّ لملاحقة هذا الامر ، فلا احد من ذويه يسعه ان يقوم في هذا السبيل بما اقوم به انا . فعليّ ان ابادر حالاً الى العمل وان لا اتركه بهذه الشدة . وهو يحفظ لي هذا الجميل ومستعد لمكافأتي عليه اذا كتب لي النجاح . وكان بوده ان يبعث لي بنفقات السفر ، لولا بُعد المسافة واطوار الوصول الى هنا . واطلعتني العجمي المذكور على الرسالة وهي مهوره بخاتم الباشا .

« ولما اطلعت السيد مويّان علي فحوها ، وعلى كتاب توصية سموك لي ، سألته ان يقرضني ايضاً ثلاثمائة قرش تسدها سموك له . فنزل عند رجائي بارتياح ، مدفوعاً برغبته الصادقة في خدمة مصلحة النصرانية التي انا ذاهب في سبيلها ، وخدمة سموك التي تطوع لها حتى سفك دمه في كل ما تأمره به ، ورغبةً في تخليصي من الاخطار والاهوال التي انا واقع فيها لا محالة لو بقيت هنا . فاتوسل الى سموك ان تحول اليه باقرب وقت مبلغ ثمانمائة قرش على السادة بشيوليني في مرسيليا ، طبقاً للسند الذي وقعته له . واذا رأيت ان تستخدمه في هذه الجهات لاغراضك ، وجدته خادماً أميناً مخلصاً في كل المهام التي تكلفه القيام بها . وهو على كل حال سيكتب الي سموك كلما اقلع مركب من هنا الى بلاد النصرانية ، ليطلعك على جميع ما يحدث في هذه الجهات حتى رجوعي (١) الذي أوّمل بالله ان يكون قريباً . فانا عازم على ان لا اضيع الوقت في تلك الاصقاع ، لاعود منها باقرب وقت .

(١) تجده في السجل عدة تقارير ورسائل موجهة الى فردناندو الاول وولده قزما اللذين اتخذاه ، بعد هذه الحادثة ، عميلاً سرياً لهما .

« اما الاغراض التي وعدتُ بها سعادة الباشا فأرى ان تجهّز له ، مسا دام عاقداً النية على الاخذ بالثأر . فالوزير لا يسعه ان يتوقف هنا طويلاً ، على رأي البعض ، لان عليه ان يكون في الربيع القادم في هنغاريا او في بلاد العجم . فيفتح الطريق لعودة علي باشا . والامل معقود بالله ان يستعيد كل ما خسره . ومهما كان الامر فسموك اعرف مني بما يحسنُ عمله ، فاترك لفظنتك امر التدبير في هذه الامور وفقاً للانباء التي تبلغك .

« سنرحل من هنا ، ان شاء المولى ، بعد ثلاثة او اربعة ايام على الاكثر ، برفقة ثلاثين مسافراً ، ميممين بغداد ، لان بقية الطرق ما زالت مسدودة . وسنقصد من هناك الى هدفنا في اول فرصة تسنح ، اذا وجدنا رفاقاً . والا اضطررنا الى استئجار عشرة او اثني عشر نفراً مسلحين يوصلوننا الى وراء الحدود . ومتى وطئنا ارض فارس أسرعنا الى مقابلة الشاه حيث حلت ركابه .

« وفيما انا اتأهب للسفر تراني مسروراً للخروج من هذه الورطة . وقد دبت في رغبة شديدة للعمل تلبيةً لاوامر سموك ، وتحسيناً لحالتنا . واملي بالرب ان يبارك مساعينا الائلة لمجده تعالى وجلّ ، الذي اسأله ان يحفظ سموك بكامل الصحة والانشراح . واختم منحنياً للثم الاذيال الشريفة بمجبة واخلاص ، واذيال سمو الغراندوق وسمو الامير ، انا وكاتب هذه السطور جرجي .

عن حلب في ٦ كانون الاول ١٦٠٧ . ميخائيل قريع (١)

٤ - نكبة حلب . اما تقرير كروجر فلا يختلف عن السابق سوى ببعض التفاصيل الراجعة الى محنة قريع ونكبة حلب . ولما كانت هذه النكبة صفحة محزنة من تاريخ هذه المدينة ، وان تكررت في العهد البائد ، رأينا ان نعرّبها للقراء ضاربين صفحاً عما ورد في التقرير السابق :

اولاً : نهب المنازل - صدر كروجر رسالته الى ليونسيني بتهنئته ، لانه نجا من الاخطار التي احاقت بها ، ويتمتع بروية وطنه تحت انظار سمو الغراندوق .

وبعد ان روى له ما ارتكبه السكمان قبل خروجهم من حلب ، « سالبين كل من التقوا به بفضاعة فاقت ما اقتروفه قبل سفرهم الى عينتاب ، كما يتذكر جيداً ، خرجوا من المدينة واللعنات تنصب عليهم من افواه الجميع . »

وبعد ان وصف عودة الباشا على اثر الاندحار وانصراف عساكره الى النهب والتخريب ، قال : « اسمع كيف نجوت بمعونة الله من خطر كبير . دخل حارتنا ( ١ ) ما يزيد عن مئة خيال ، وعمدوا الى تحطيم الابواب . ولما رأوا الحي ضيقاً والابواب قصيرة ، لا يسع خيولهم دخولها ، ومسدودة من الداخل بالحجارة المبنية ، عادوا ادراجهم ومروا بالمنزل حيث كانت غرفتي ، دون ان يجرؤوا ما كنا . ولو انتبهوا الى سهولة اقتحامه لنهبوه بدون عناء . وكنت وحدي في الغرفة العليا ، فقبعت مكاني خائفاً . والويل لي لو دخلوها . وما ان اجتازوا الحي حتى هرولت الى منزل ميخائيل قريع وانتقلت اليه مع اسبابي . »

« وكان باب الحي قد اغلق ورائهم فجاء غيرهم وتمكنوا من تحطيمه واخذوا يقتحمون المنازل . واول بيت ولجوا اليه كان ذلك الذي خرجت منه منذ هنيهة . فحملوا كل ما وجدوه فيه ، وسلبوا ضيفنا العجوز المسكين . ثم نزلوا الى غرفتي وكسروا بابها فوجدوها فارغة . »

« وجاء غيرهم الى منزل ميخائيل قريع وحاولوا اقتحامه . ولما رأوا بابه مصفحاً بالحديد ( ٢ ) ، ومسدوداً بالبناء ، عاجلوا حديد نافذة الغرفة السفلى ، التي بجانب البواب ، حيث كانت المرأة المسكينة ام قرمزية ( ٣ ) . بيد اننا كنا

( ١ ) يعني على الارجح حارة « الصليبية » الآهلة بالمسيحيين من كل الطوائف ، وكانت خارجاً عن المدينة المعروفة حتى اليوم باسم المدينة .

( ٢ ) ان اغلب بيوت حارة الصليبية موضوعة لتتحمل حصاراً . فالباب الخارجي ضيق قصير مصفح مثبت بمسامير غليظة ، ووراءه دهليز ضيق ينتهي بباب ثان يفتح على فناء سموي ، اصطفت حوله غرف المنزل .

ننتظرهم بربع بندقيات ، فهزمناهم باطلاق الرصاص وبرشق الحجارة . فتحولوا الى دار جارنا . بيد ان اصحابه ، لما شاهدونا من وراء الحاجز نرميهم بالحجارة والرصاص ، تشجعوا ودافعوا عن انفسهم على قدر طاقتهم . وامتاز بينهم الكاهن الارمني ، فقد اصاب رأس احد بلو كباشية السكمان ، وكاث يحاول الدخول الى الدار ، بججر شج رأسه ، فخرّ على الارض كالميت .

ثانياً : نهب الكنائس والحريق - « وما امكن تخليص كنائس حارتنا . فقد نهبوا . وهي خاصة الطوائف الاربع ( ١ ) . وتابع السكمان طريقهم فحرقوا بيتاً بكل ما فيه انتقاماً من اصحابه الذين سدوا بابه ليمنعوا من الدخول . وخلاصة القول ان الناظر لم يكن يشاهد سوى مظاهر البؤس والحراب والنار والدخان المتصاعد من الابنية المهتمة ، ولا يسمع سوى العويل وصراخ الاستنجاد وقرقة تحطيم الابواب . وكنا نخشى ان يمسي كل شيء طعمة للنار . وقد قتل السكمان كثيرين من الاهلين . وفي غضون هذه الفوضى نهب منزلا السيدين يوسف وبرناردينو وكيلى كنيسة الافرنج . وهكذا كان نصيب السيد يعقوب القادم من بلاد العجم . وجدده السكمان في الفراش فسلبوه كل شيء وتركوه عرباناً . اما والد معتوق ، الذي كان غائباً في طرابلس ، وخطر للسيد ميخائيل ان يستخدمه في الرحلة التي تعرفها ، فلم يكتفوا بسلبه ، بل اوثقوه وساقوه الى السوق ليبيعوه . فاستفكه ولده بربعين قرشاً .

« وزبدة القول ان الاضرار التي لحقها هؤلاء الاشقياء بالاهالي اكثر من ان تحصى . منهم من حملوا اولاده وساقوه معهم ، ومنهم من اوسعوه ضرباً ، واثنوه جراحاً ، وتركوه بين الموت والحياة . دام هذا الحال من الصباح حتى المساء الذي خرج فيه هؤلاء اللصوص حاملين ما وصلت اليه ايديهم .

« هذا ما ارتكبه السكمان الذين لم يتمكنوا من دخول المدينة . اما الذين

(١) كانت كنائس الموارنة والارمن والنساطرة في حارة الصليبية ضمن نطاق حوش واحد وبوابة واحدة .

دخلوها مع الباشا ففاقوهم شراً. اقتحموا المخازن والدكاكين ونهبوا كل ما وجدوه فيها. وهكذا فعلوا بالمنزل، حتى اضطر الافرنج الى سد ابوابهم من الداخل بالحجارة المبنية، والدفاع عن انفسهم بالسلاح. دامت هذه الحال ليلتين ونهاراً ونصف نهار، الى ان دبر الباشا اموره، وسلم جمعه بك القلعة، ووضع فيها حامية مؤلفة من خمسمائة سكراني. وسافر ببقية العساكر قاصداً عينتاب التي نهبها حال وصوله اليها.

« فتصور كم من الاخطار اجتزناها في هذا الوقت العصيب. وكان خوفنا اعظم من مجيء الوزير للاسباب التي لا تخفى عليك. وفكّرنا الف مرة في الهرب. وانسى لنا ذلك وايدينا فارغة من المال، والطرق مسدودة في وجهنا من العصاة الهاربين من الجيش القادم. فاضطررنا الى التريث، ووطدنا النية على ان نتقبّل بصر ما اعدّه الله لنا من الاطايب والمرائر. اما الوزير فوصل في التاسع والعشرين من الشهر المذكور وارسل نائبه فتولى المدينة. واخذ القلعة بعد ثلاثة ايام لا غير دون ان يلقي صعوبة او مقاومة.

٥ - عقاب قريع . « واستدعى جميع اتباع الباشا فعاقب بعضهم بالغرامات، والبعض الآخر بطرق غيرها.

اولاً: التعذيب - « لما اطلعه يهوديان ملعونان على امر السيد ميخائيل قريع، استدعاه ودقق في التحقيق معه فارتاح لحديثه فاخلى سبيله. لاسيما انه كان يعرف والديه وكثيرين من اقاربه. وذهب الى ان عرض عليه مساعدته في حاجته، كما تقف عليه من التقرير السري الواصل اليك. بيد ان هذا السرور تبدد سريعاً، لانه وضع ثالث يوم تحت مراقبة شاويش كان يرافقه كظله ويأكل ويشرب ويبات عنده. وتظاهر له بالصدقة والاخلاص ليستخلص سره. وامتحنه في شتى الامور. فكان يريد ان يعرف سبب عودته الى حلب برفقة رجلين من الافرنج، عاد احدهم الى بلاد النصرانية وبقي الآخر معه.

« ولما عجز عن معرفة شيء من اسراره قاده يوماً الى احد البيوت، حيث

رتب له اربعة عساكر او ثقوه واخذوا يذيقونه من العذاب اشكالا والوانا  
ليستخرجوا سره . ولما وجدوا ان هذه الطريقة ايضاً لم تبلغهم فأرهبهم فرضوا عليه  
غرامة خمسمائة قرش فدفعها مرغماً دون ان يسألهم عن السبب ، لان حجة الظالمين  
محض ارادتهم . وبلغت عذاباته حداً لا تطيق النفس تحمله . فاني اقسم لك انه  
خرج منها قطعة لحم ميتة . وقد كشف حاله للسيد مويان وغيره من الاصدقاء .  
فان لم تصدقني لا بد ان تصدقهم .

ثانياً : الحيانات - « وبعد وصول الوزير ببضعة ايام جاؤوه بجزندانر الباشا .  
قبض عليه احد اعوان الوزير وقاده اليه . وهو الذي ادى لك تلك الخدمات .  
فبتنا في وجل عظيم للاسباب التي تعرفها . لاسيما بعد ان خان مولاه ودلّ على  
مخابيء امواله الوافرة ، فضلاً عن اسرار كثيرة فضحها له . واؤكد لك ان هذا  
الحائن اوقع في قلوبنا رعباً يزيد عن غيره من الحونة ، بعد ان خلنا انفسنا احراراً  
على اثر تلك الشدائد . ولكننا نحمد الله الذي ارسل لنا مع الشدائد الصبر عليها .  
وعليك ان تشكره شكراً خاصاً على نجاتك من هذه الاخطار . فقد جاء سفرك  
نعمة عليك وعلينا .

« والحق يقال ان كل امرئ آمن على نفسه من شر السكمان الاشقياء بعد  
وصول الوزير ، واصبحت الطرقات ايضاً مأمونة للذهاب اينما شاء . غير اني لا  
اكتمك خوفاً من ان يرتكب جنوده ، بعد اشباع بطونهم ، شروراً افطع بما  
اقدم عليه السكمان . فقد وصلوا الى هنا خائرين جائعين ، واخذوا الان في  
مضايقة السكان ومنهم من لا يتحمل رؤية نصراني . اما الوزير واعوانه فمنصرفون  
الى ابتزاز الاموال من هذا وذاك بعة وبغير علة . فيمكننا القول ان ذئباً ذهب  
وحل مكانه ذئب اكبر منه ، وبورفته دزينة من الذئاب متشابهين جلدأ

وإخلاقاً ... (١) .

عن حلب في ٩ كانون الاول ١٦٠٧

خادمك الخالص

جورجي كروجر (٢)

٦ - **آمرة على باشا صهبلاط** . بيد ان ككسرة جمبلاط باشا وعودة ولاية حلب الى حضن الدولة لم تكونا ككافيتين لاعادة الطمأنينة الى قلب السلطان، لان جمبلاط لجأ الى الاناضول واتفق مع عصاتها ، واخذوا يعيشون في البلاد فساداً حتى اصبحت الاستانة نفسها في خطر . ولم تكن حالة الجيش العثماني المنهوك القوى تساعد على مواجهة كل هذه الثورات ، فضلاً عن اخماد ثورة العجم . فكان لا بد من الاتفاق مع العصاة باي طريقة كانت .

اولاً : العفو السلطاني - وهاك تعريب رسالة سرية وردت الى الغراندوق من سفير انكرا في الاستانة ، وكان احد جواسيسه فيها ويدعى توما جلاور (٣) :  
« الداعي لكتابة هذه الاسطر تقديم واجبات الاحترام لسموك ، والاعتذار من تأخري حتى الان عن اطلاعك على حوادث هذه الجهات . والسبب الاول راجع الى صعوبة الوقوف على الحقيقة ، مع قربي من مصادرها ، لان هؤلاء الباشوات كان دأبهم اختلاق الاكاذيب ليهدثوا روعة الشعب من الشرور الفظيعة التي كان يرتكبها الثوار دون رادع ، وقد كاد الرعايا يثورون على ولائهم من جراءها .

« واخبرك الآن ان جمبلاط ، باشا حلب السابق ، ورئيس هؤلاء العصاة ، كان قد طلب العفو ، وُمنحه بقسم كتبه السلطان بيده ، وذيله المفتي الاكبر وغيره من الباشوات بتوقيعهم ، وبعثوا به اليه بصحبة بستانجي باشا الذي تلقى الاوامر

(١) بقية الرسالة تحيات من معارف ليونسييني في حلب .

(٢) مد ٥ و ١٢٨ - ١٢٩ .

(٣) Tommas Glower



بان ينزل عند جميع طلباته ، لاستعدادهم التام الى تليتها . وبناء على هذه الوعود والعهود احضره بستانجي باشا امام السلطان . فقابلته ببشاشة . ولعله قصد من ذلك استدراج امثاله الى الطاعة . اما مصيره فلا يعرف حتى الان ، لان الاقوال فيه متضاربة . وعندني ان هذا الباشا لو علم بما آلت اليه هذه الامبراطورية من الانحطاط والوهن لما خضع البتة . وان لم يراقبوه مراقبة شديدة لا يبعد ان يهرب . « اما الثائر قلندر ، الذي احرق من بضعة ايام قسماً من مدينة بروسه بمساعدة جمبلط باشا ، فقد لجأ الى جبل غير بعيد ، حيث قضى عشرين يوماً . ثم تركه منذ ستة ايام وجاء الى ازميز ، اعني نيقوميديا ، وهي اقرب الى الاستانة . » كتب الينا قناصلنا من حلب ان مراد باشا السردار يتولى الحكم فيها بعدالة ، وان البلاد متمتعة الان بتمام الراحة والامن ، ويلاقي التجار فيها من المعاملة احسنها .

« هذا ما استطعت التقاطه من الاخبار . اذا لم يصل اليك جيسارو ترجماني (١) قبل هذه الرسالة ، فارجو سموك ان تفهمه انني اصبحت بغنى عنه . »

عن القسطنطينية في ٢٤ كانون الثاني ١٦٠٧ . خادم سموك

توما جلاور السفير الانكليزي (٢)

ثانياً: مصرع علي باشا - وقد تمكن ميخائيل قريع من السفر الى بلاد العجم والاتصال بملكها واقناعه بالمخالفة مع الامراء الاوروبيين . وله في هذه المهمة الخطيرة عدة تقارير بعث بها ، من السنة ١٦٠٧ حتى السنة ١٦١٢ ، الى فردناندو الاول والى قزما الثاني ولده وخلفه ، وهي ذات اهمية خطيرة في تاريخ تلك البلاد ومعرفة احوالها ورجالها ، تؤلف سفرأ نفيساً لؤ شاء المرء جمعها (٣) ، وقد جمعناها

(١) لعله جيسارو الكردي الذي كان له شأن مع فخر الدين . راجع عنه

قع ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ .

(٢) مد ٧ و ٤٠٨ .

(٣) مد ٥ و ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٦ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٩٢ ،

بكاملها كترجمة لمواطننا ومساعيه . ثم اقنعنا احد كبار المستشرقين الايطاليين  
بنشرها وسلمناه قسماً منها فبقي لديه .

ونكتفي الان بالاشارة الى تقرير كتبه قريع من مدينة كسبين الى كاتم  
اسرار الغراندوق بتاريخ ٣ تشرين الثاني ١٦٠٨ ، يخبره فيه عن «وصول سبعة الاف  
من الثوار الاتراك ، لينضموا الي الجيش العجمي ويحاربوا في جانبه السلطان .  
وهم فلول من عصاة دحرم الوزير . اما ما خص علي باشا صديقنا فقد اشيع انه  
قصد الى الاستانة ليومي الطاعة للسلطان الذي قابله بعطف واغدق عليه الانعام  
ومنحه لقب وزير وولاه على مقاطعة في حدود هنغاريا . وقد حزن الكثيرون من  
هذا الخبر . اما انا فابتهج به لمعرفة بنياته الحسنة تمام المعرفة . فلا اشك في  
امانته بل اشكر العناية الالهية التي قادته الى هذه البلاد ليكشف حقيقة امره (١) .  
واليك الآن ما قاله المحبي عن علي باشا جمبلاط في بقية ترجمته بعد انكساره  
امام مراد باشا القبوجي :

« وهرب ابن جانبولاذ الى حلب ولم يقرّبها الا ليلة واحدة فوضع اهله وعياله  
وذخائره في قلعتها وخرج منها الى ان الجاه الحرب الى ملطيه . وبقي الوزير يتبع  
اعوان ابن جانبولاذ فأبادهم قتلاً بالسيف . وجاء الى حلب بالجنود فرأى قلعتها في  
ايدي بعض اعوان البغاة فرام محاصرتها فتمتقق من فيها ان كل محصور مأخوذ  
فطلبوا الامان من الوزير فانزلهم بأمانه وكانوا نحو الف رجل (٢) . وكان معهم  
نساء ابن جانبولاذ . وكان اكبر الجماعة اربعة من رؤوس السكبانية . فلما نزلوا  
بادروا الى تقبيل ذيل الوزير فاشار الي النساء بالسكن في مكان معلوم وفرق

٢٤٥ ، ٢٥٠ ، ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ،  
٣٠٨ . وفي السجل نفسه ورقة ٩٠ تجد فيها القاب شاه العجم ، وفي ورقة ١٣٢ تجد  
جوابه على رسالة بولس الخامس اليه المعربة اعلاه .

(١) مد ٥ و ١٨٥ ق .

(٢) جاء سابقاً انهم خمسمائة وهو الاصح لان كاتبنا شاهد عيان .

الرجال على ارباب المناصب . وطلع الى القلعة ورأى ما بها من اموال ابن جانبولاذ وتحفه العزيزة فضبط ذلك كله لبيت المال . ثم شرع يتجسس في حلب على الاشقياء واتباعهم فقتل جملة من الاتباع . وهجم الشتاء ففرق العساكر في الاطراف وشتى هو في حلب .

« واما ابن جانبولاذ فانه خرج من ملطية وسار الى الطويل العاصي في بلاد الاناضول واراد ان يتخذ معه . فأرسل اليه الطويل يقول له انت بالغت في العصيان وانا وان كنت مسمى باسم عاص لكني ما وصلت في العصيان الى ربتك . فرحل عنه بعد ثلاثة ايام وسار الى العاصي المعروف بقرا سعيد ومعه ابن قلندر . ولما وصل الى حيث هؤلاء العصاة تلقوه وعظموه وحسنوا فعلته مع العساكر السلطانية وارادوا ان يجعلوه عليهم رئيساً . فشرط عليهم شروطاً فما قبلوها . فاطمان تلك الليلة الى ان هجم الليل واخذ عمه حيدر وابن عمه مصطفى وابن عمه محمداً وخرج . ولم يزل سائراً حتى دخل بروسة مع الليل وتوجه الى حاكمها واخبره بنفسه فتحير منه . ولما تحقق ذلك قال ما سبب وقوعك . فقال ضجرت نفسي من العصيان وها انا ذاهب الى الملك فأرسلني اليه في البحر . فأرسله عن طريق البحر فلما دخل دار السلطنة اعلم به السلطان . فقال احضروه ( ١ ) . فلما حضر اليه قال له ما سبب عصيانك . فقال ما انا عاص . وانما اجتمعت علي فرق الاشقياء ، وما خلصت منهم الا بان قيمتهم في فم جنودك وفررت اليك فرار المذنبين . فان عفوت فانت لذلك اهل ، وان اخذت فيحكمك الاقوى . فعفا عنه واعطاه حكومة طمشوار في داخل بلاد الروم ، ونجا بذلك . ولم يزل على حكومته الى ان عرض له امر اوجب قتاله لرعايا تلك الديار ولزم انه انحصر في بعض القلاع في بلاد الروم . فعرض امره الى باب السلطنة الاحمدية فبرز الامر بقتله وعدم اخراجه من القلعة . فقتل وارسل رأسه الى باب السلطنة . وكان ذلك في حدود العشرين

(١) ان رواية المحبي ، كما ترى ، تختلف قليلاً عما جاء في رسالة السفير الانكليزي وهو اقرب منه الى الوقائع وبالتالي الى الحقيقة .

والف (١)، والله اعلم (٢) .

ثالثاً : ولده واولاد اخيه - واعلمنا المؤرخ هامر نقلاً عن المؤرخ نعيمه الذي استقى اغلب معلوماته من الامير حسين المعني ابن فخر الدين الثاني ( فع ٢٥٥ ) :  
« ان ابن علي باشا جانبولاذ السوري أدخل السراي السلطانية ، وتعين بعدئذ اميرالأعلى الاسطول العثماني . وهو الان وزير . »

وجاء في نسبة المشايخ الجانبولاذية لطنوس الشدياق ( ٣ « وجعل ( السلطان ) مصطفى بك ( ٤ ) طبرغا في دائرته الخاصة . وسنة ١٦١١ توفي علي باشا في بلغراد وكان شجاعاً فتاكاً كريماً عادلاً حليماً وديعاً هماماً عاقلاً . فاما مصطفى بك فانه ترقى بالحرم الخاص الحكومي وصار وزيراً اول وصهر السلطان وقبودان البحر ووالي الروملي . ولما حارب السلطان احمد شاه العجم ورد مصطفى باشا في اسكيدار بالموكب الهميوني مع العساكر الكثيرة من جانب الروملي . وسنة ١٦٣٦ اتهم مصطفى باشا بقتل رجل يسمى موسى جلبي فقتل . وكان عاقلاً فصيحاً ذا شيم حميدة وآراء سديدة .

« وسنة ١٦٠٧ لما تغلب مراد باشا على علي باشا جانبولاذ في حلب وفرّ الى ملطيه كما تقدم ، تشتت اقاربه . فاخترق بعض اولادهم في بلاد حلب وكس .  
« وسنة ١٦٣٠ حضر جانبولاذ بن سعيد (٥) بولده رباح من حلب الى بيروت لما بينهم وبين آل معن من الصداقة والوداد . ولما تمّ خبره قدم اليه اكبر جبل لبنان ودعوه الى الاقامة في بلادهم ، فاجاب واتى معهم واقام في مزرعة الشوف ، فاعتبره الامير فخر الدين حتى كان يعتمد عليه في مهمات اموره . وكان الشيخ

(١) تبدأ في ١٦ آذار ١٦١١ م .

(٢) المحبي ٣ : ١٣٨ - ١٤٠ .

(٣) اخبار الاعيان في جبل لبنان ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

(٤) ابن علي باشا .

(٥) ابن مصطفى بن حسين شقيق علي باشا ( الشدياق ، ١٢٩ ) .

أبو نادر الحازن مدير الامير فخر الدين فاتحد مع جانبولاذ وصار بينها محبة  
وثيقة (١٠١)»

هذا ما وقعنا عليه من الوثائق العربية والشرقية، الخاصة بعلي باشا والي حلب،  
سليل آل جمبلاط العريقتين في الحسب، والنسب، والبطولة. وقد كان عند شرف  
محتده جامعاً كل المزايا التي تؤهله لان يكون مؤسس الدولة السورية. كان عادلاً،  
حازماً، حكيماً، كريماً، منظماً، باسلاً. قاد جيش عمه حسين باشا فهزم  
الانكشارية المحتلين حلب. ولما صرع عمه اقسام بالثار. فمسك زمام الولاية واعلن  
استقلاله واستقلالها، وجمع العساكر ونظم الدواوين وضم جزءاً من الاناضول.  
ولما ركب يوسف باشا سيفا الذي فاز بوظيفة سردار العساكر العثمانية في  
سورية ليزيجه عنها، لم يهب جيشه الجرار، بل زحف عليه حتى حماة، فدحره  
وشتت شمله واستدعى الى نجدته فخر الدين المعني الثاني امير الشوف بلبنان، فلبثاه  
فلحقا بالسردار حتى دمشق وحاصراها ونازلا انكشاريتها وخذلاهم. وصفا لها  
الجو، فتعاقدا على استقلال سورية ولبنان من الدولة العثمانية. ولما كان ينقصها  
اسطول بحري شواطئها، واسلحة حديثة يتفوقان بها على جيش الدولة والموالين لها  
من الجيران، حوّلوا النظر شطر الغرب المسيحي، الطامع في الاراضي المقدسة،  
فعقدا مع فرناندو الاول، غراندوق تسكانا، محالفة سياسية تجارية، تضمنت لملكتهما  
الاستقلال والقوة والرفاهية. ونزلا عند شوره فسعيًا للتخالف مع شاه العجم  
وعصاة الاناضول. على امل ان يصبحوا كتلة هائلة تقف في وجه اكبر قوة تحشدتها  
الدولة العثمانية عليهم. ولو لم تعاجل هذه علي باشا بضربة لم يحسب لها حساباً، لقضوا  
عليها او قضوا وطهرهم من الانسلاخ نهائياً عنها.

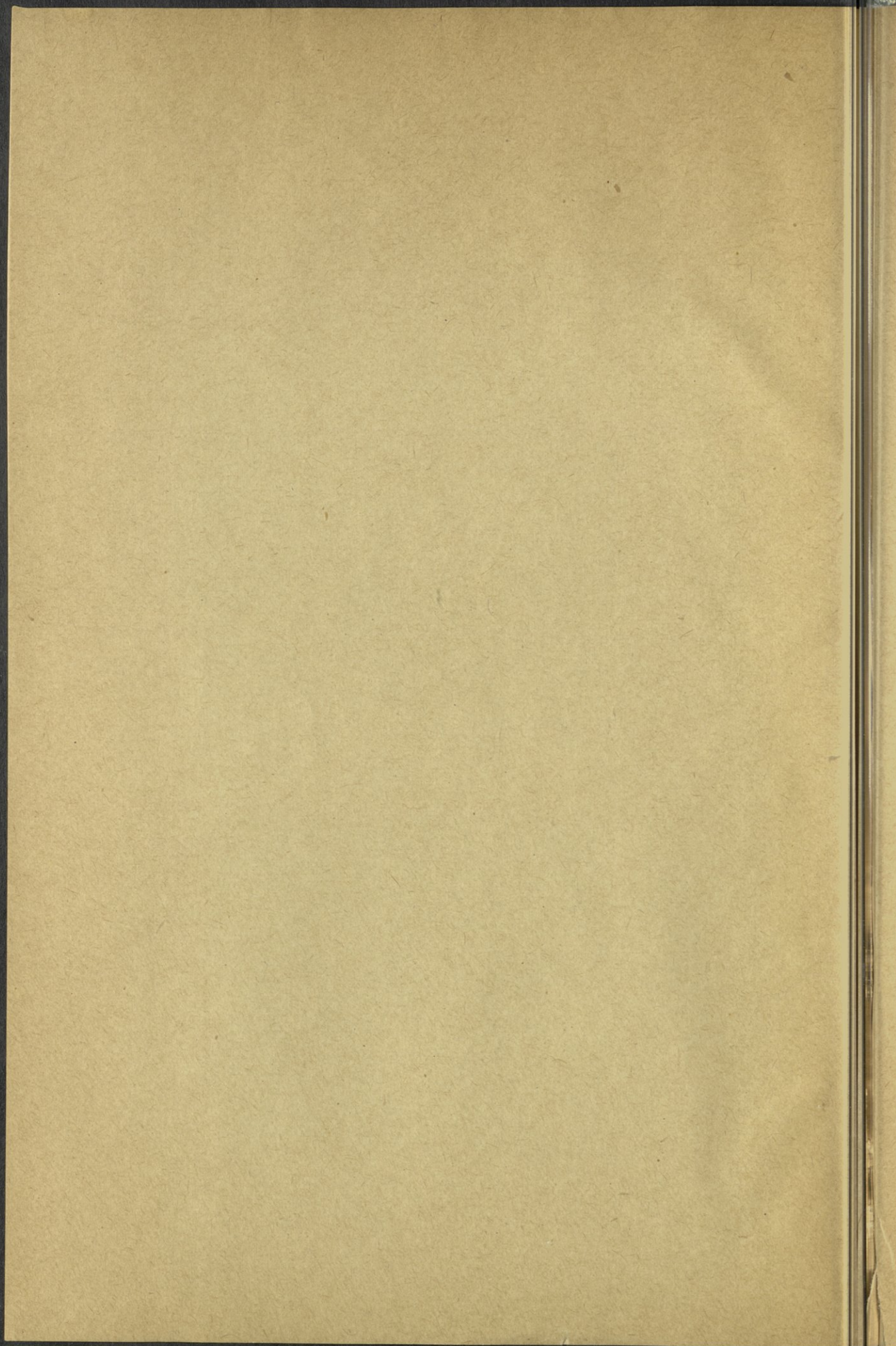
لم تقوَ الحملة العثمانية على عساكر علي باشا بعددها وعددها، بل بخدعة حربية

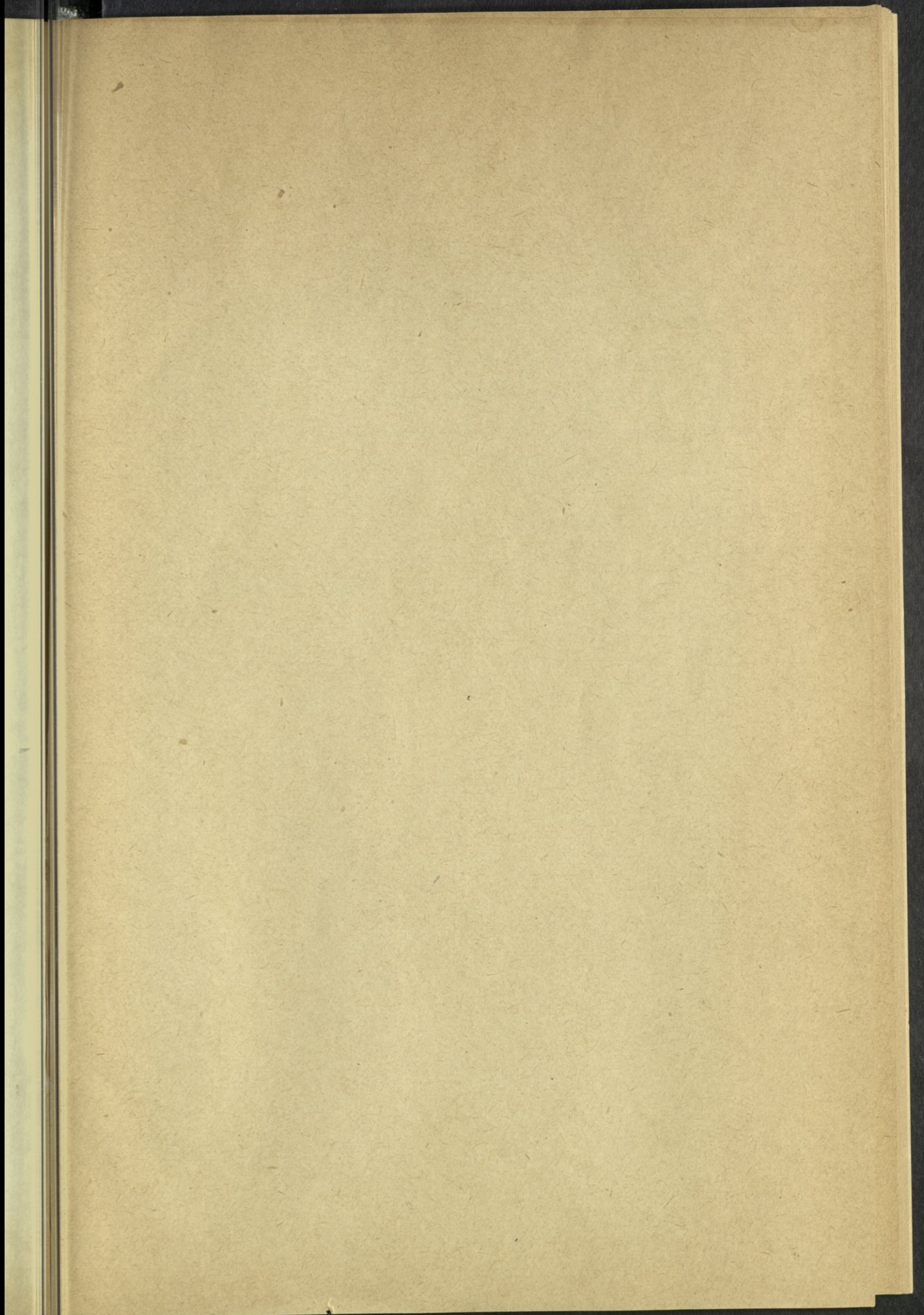
(١) راجع بقية اخبار المشايخ جانبولاذ في لبنان وانسابهم في الشدياق

ضعفت صفوفهم فانهمزوا . فلم يسقط في يده ، بل جمع من فلولهم خمسة عشر الفاً  
 وزحف بهم على الاناضول ، لينضم الى عصاته ، فيتقوى بهم ويتقورا به ، الى ان  
 يصله مدد الشاه والغرانديق . على ان العصاة لم يفهموه ولا فهموا مصلحتهم . وكان  
 السلطان يتوود اليه ، فاخذ الى السكينة ، واكتفى الى وقت ما بولاية الروملي .  
 بيد ان الفكرة التي نزعته به الى اعلان الثورة واستقلال سورية والاناضول ،  
 وسجلته على إعداد القوة لنهضتها السياسية والاقتصادية ، خلدت ذكره في تاريخ  
 الشرق ، وخولته الحق بان يدون اسمه في رأس لائحة ابطال الوطن .

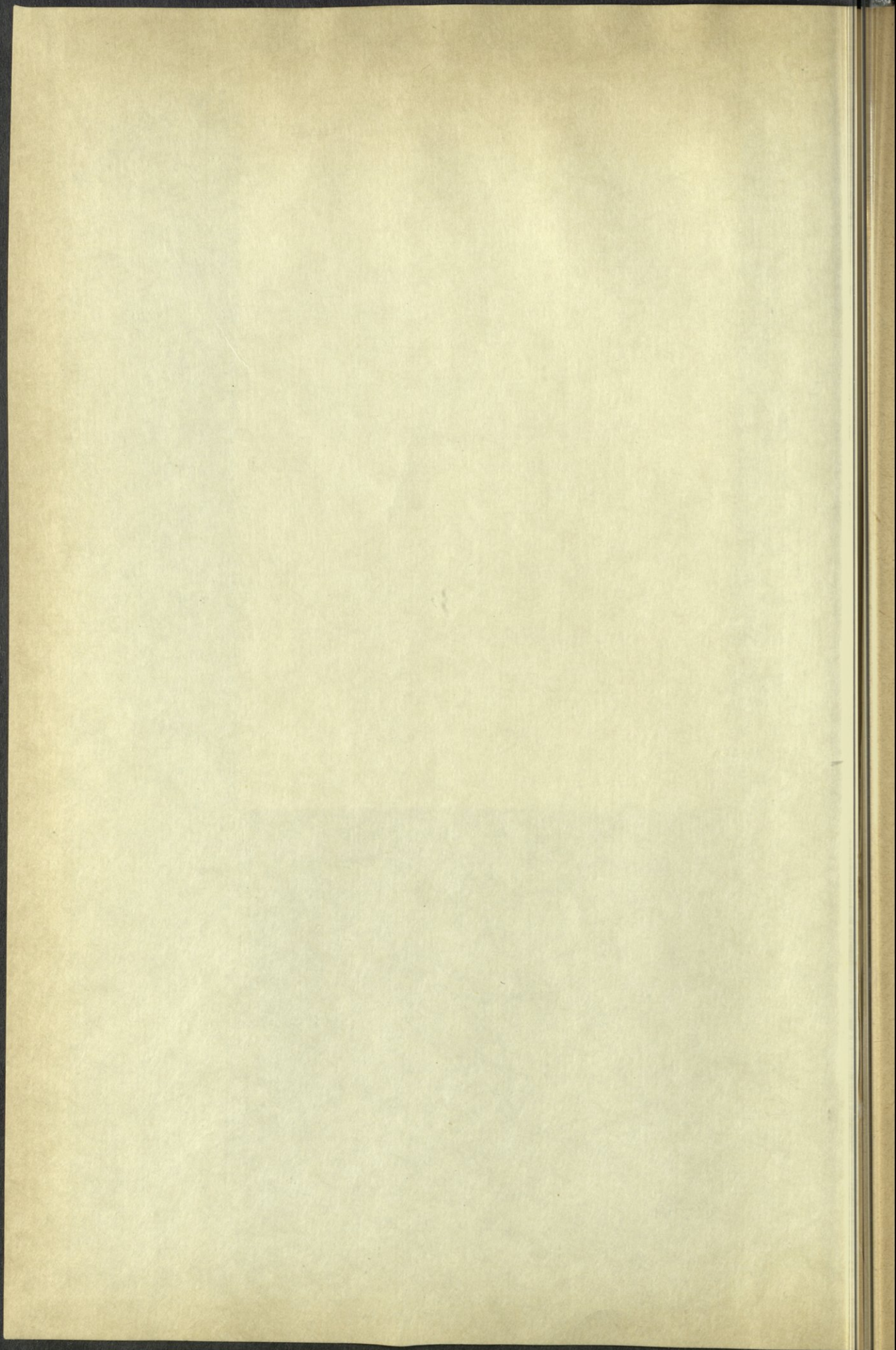
زغرتا ، في ٨ كانون الاول ١٩٣٨ .

انجورني بوشقراي











A.A.U.B. LIBRARY

CA:956.101:J95qA:c.1  
قرآلی، بولس (الخوری)  
علی باشا جنیلاط والی حلب، ۱۶۰۵-۱  
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



CA:956.101:J95qA

قرآلی \*

علی باشا جنیلاط والی حلب ، ۱۶۰۵ - ۱۷۱۱

DATE	Borrower's Number	DATE	Borrower's Number
JUN 8	AT BINDING		

CA  
956.101  
J95qA

